
ترجمة
أحمد موسى
ربيع كتماندو الأزرق
أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة
أنطولوجيا

الفصل 1


ترجمة
أحمد موسى
ربيع كتماندو الأزرق
أنطولوچيا القصة الإيرانية الحديثة
أنطولوچيا

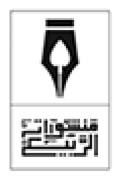
الفصل 2

ربيع كتماندو الأزرق

أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة

ترجمة

أحمد موسى



ربيع كتماندو الأزرق

أنطولوجيا

ترجمة: أحمد موسى

غلاف: أحمد مراد

طبعة أولى: يناير 2019

موسى، أحمد

ربيع كتماندو الأزرق، أنطولوجيا

ط1 دار الربيع العربي، القاهرة، مصر.

المدير العام: أحمد سعيد عبد المنعم

ردمك: 978-977-5221-85-8

رقم الإيداع(مصر): 17142/ 2018



manshurat.alrabie@gmail.com

rabe3arabe.com@gmail.com

002-01140848568

0237034079

الفصل 3

مقدمة المترجم

لا ريب أن الأدب الإيراني في مساره الحديث يتجه صوب الرواية والقصة. ولأن الكتابة في قالب القصة والرواية تلقى إقبالًا متزايدًا في المجتمع الإيراني بات الكُتَّاب والمبدعون يركّزون في منجزاتهم على هذا الجنس الأدبي أكثر من ذي قبل. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الناس يرون صورة حياتهم وأحوالهم وأحداث مجتمعهم منعكسة بجلاء أكثر في مرآة الأدب القصصي، وأن الرواية والقصة القصيرة أضحتا من أكثر القوالب الأدبية واقعية وقدرة على وصف التحولات المجتمعية ورسمها. ومن المؤكد أن هذا الجنس الأدبي الاجتماعي الذي لم يمر وقت طويل على ظهوره في إيران سوف يواصل مسيرة نضجه وتكامله.

يعتقد النقاد في إيران أن مرحلة ما بعد الثورة الدستورية (١٩٠٦م) هي مرحلة الرواية والقصة بامتياز، والدليل على ذلك هو كثرة الآثار القصصية المنشورة.

إذًا فالرواية والقصة القصيرة بشكلهما الغربي وأسلوبهما المعاصر دخيلتان على إيران من الثقافة الغربية، ولا يتعدى عمرهما المائة عام. في البدء كانت الأعمال الروائية ترد إلى إيران باللغات الفرنسية والإنجليزية والروسية والتركية والعربية ويطّلع عليها فقط من لهم دراية بهذه اللغات، ثم في مرحلة لاحقة نشطت الترجمة الفارسية وأقبل الكُتّاب والمترجمون على نقل هذه الإبداعات إلى لغتهم مما كان له عظيم الأثر على تحسين الأسلوب الفارسي وتخليص اللغة الفارسية من شكلها القديم وتحديثها وجعلها أكثر يسرًا وسلاسة.

يرى بعض النقاد أن شروع الكتابة القصصية في إيران شكّل ثورة لغوية، حيث اتجهت اللغة الفارسية في هذا الإبان إلى أحضان الطبقة الشعبية واقتربت من ذوق عوام الناس وإدراكهم ولغتهم. لذلك شاعت الكتابة البسيطة والخالية من التكلّف والممتزجة باللغة العامية، ولعل الكاتب والقاص الرائد محمد علي جمالزادة كان تتويجًا وخير مثال لهذا المسار، كيف لا وهو الذي به يُؤرخ للأدب القصصي الإيراني المعاصر، ويعتبر حدثًا مهمًا في تاريخ الأدب الإيراني، وهو صاحب أول مجموعة قصصية إيرانية «يكي بود يكي نبود» (كان يا ما كان). بعد جمالزادة، عُدَّ صادق هدايت أبرز كاتب قصصي وصاحب أسلوب في الكتابة القصصية. أولى قصصه الرائعة رأت النور في باريس: مادلن، حي بقبر، الأسير الفرنسي، حاجي مراد. وبعد عودته إلى إيران كتب مجموعة من القصص أبرزها قصة «داود الأحدب» التي ارتأيت جعلها فاتحة هذه المختارات. إذًا يعتبر هدايت نقطة تحول في القص الإيراني ومعه بدأت الحياة الأدبية الجديدة في إيران.

جاء بعد جمالزادة وهدايت كوكبة من الكُتَّاب القصصيين امتاز كلّ منهم بأسلوبه المتفرد وسماته الخاصة. جلال آل أحمد أحد الكبار الذين جعلوا الأدب رسالة ومسؤولية، وتميّز عن سابقيه برؤاه الاجتماعية والتزامه الكبير وأفقه المتنور، وكل هذه الخصال انعكست في أعماله بوضوح. من أشهر أعماله القصصية مجموعة «ديد وباز ديد» (التزاور) التي اخترت منها قصة «تزاور العيد» وضمَّنتها هذه الأضمومة. بهرام صادقي هو الآخر يُصنَّف ضمن الكبار رغم قلة آثاره. امتاز صادقي بالبحث في عمق الطبقات الذهنية لمجايليه. أثراه المشهوران هما تواليًا رواية «ملكوت» التي ترجمتها إلى العربية تحت عنوان «جن إيراني» وصدرت عن منشورات الربيع عام ٢٠١٨م، ومجموعة قصصه «الخندق والأكواز الفارغة»، وانتقيت منها قصة «مع كامل الأسف» الموجودة بين قصص هذه المختارات.

مع عقد الستينيات من القرن الماضي فُتح باب جديد في وجه الأدب القصصي في إيران؛ وبزغ نجم كُتَّاب أضفوا على القصة القصيرة الإيرانية رونقًا. غلامحسين ساعدي أبدع في توصيف الفقر وتشريحه وكتب المسرح أيضًا. أصدر آثارًا خالدة، من أشهرها مجموعتي «أصحاب عزاء بيل» و«سمرٌ بهيٌّ»، التي اخترت منها قصة «المفتش» المدرجة ضمن هذه النصوص المترجمة. جمال مير صادقي من الكُتَّاب البارزين الذين أوجدوا طيفًا جديدًا من القصص التي تتناول المنطقة الفاصلة في الحياة بين الأصالة والحداثة. شهرته عمّت الآفاق وأعماله تُرجمت إلى عدة لغات عالمية. خلّف آثارًا كثيرة من أبرزها رواية «طول الليل»، ومجموعة «الخوف» التي ترجمت منها قصة «طق طق». أحمد محمود هو الآخر بصم هذه المرحلة بطابعه الخاص وساهم في إحداث التحول الذي شهدته القصة القصيرة في إيران. أعماله نالت شهرة كبيرة، أخص منها بالذكر روايته «الجيران». أما مجموعته «الصبي البلدي» فاخترت منها قصة «مدينتنا الصغيرة». من رواد هذه المرحلة أيضًا الكاتب المبرّز القاص والروائي المعروف إسماعيل فصيح. كتاباته كانت دومًا تحظى بقبول القراء والمثقفين في إيران رغم إهمال النقاد لأعماله. الكثير من قصصه تدور حول تجربته الخاصة في الحياة. عُرف بغزارة إنتاجه. من آثاره الجديرة بالذكر رواية «شتاء ١٩٨٤م». اخترت له في هذه المجموعة قصة «عقد قران». من الوجوه البارزة أيضًا في هذه المرحلة من تاريخ الأدب القصصي الإيراني الكاتب والقاص التقدمي علي أشرف درويشيان الذي عرّت كتاباته القصصية واقع الطبقة المعدمة والفقيرة في المجتمع الإيراني في التاريخ المعاصر إبان عصر محمد رضا شاه. انعكست مصاعب حياة هذا القاص في مرحلتي الطفولة والحداثة، بشكل خاص، في مجموعته القصصية «آبشوران» التي انتقيت منها قصة «الحمّام» المقدّمة للقراء في هذه المختارات. وهي المجموعة التي كنت قد ترجمتها في العام ٢٠١٦م.

في عقد الثمانينيات والتسعينيات برزت أسماء واعدة ومؤثرة، رجالية ونسائية، أشير على وجه الخصوص إلى القاصة المبدعة گلی ترقی التي

صوّرت في أعمالها صورة الإنسان المريض واليائس والعاجز والمنزوي، الأشخاص الذين لا يربطهم بالمجتمع أي رابط. من بين أحسن قصصها قصتها المترجمة في هذه المختارات «سيدة روحي الكبيرة»، وقصتي «حافلة شميران» و«بيتي في السماء». شهرنوش پارسی پور، كاتبة وقاصة ومترجمة تنتمي إلى هذا الجيل، مشاغبة وجريئة في كتاباتها وآرائها التي طالما أثارت ضجة. من منجزاتها الخالدة رواية «طوبا ومعنى الليل»، ومجموعة قصص تحمل عنوان «قلادات بلورية» وقد اخترت منها قصتها البديعة «ربيع كتماندو الأزرق». منيرو رواني پور التي اشتهرت بروايتها «الغرقى» ومجموعتها القصصية «كنيزو» التي ترجمت منها قصة «كنيزو» الرائعة في هذا الكتاب، هي الأخرى من الروائيات والقاصات ذوات الباع الكبير والأثر البارز في هذه المرحلة. زويا پيرزاد، الكاتبة الإيرانية ذات الخلفية الدينية المسيحية، مجتهدة، وكثيرة العطاء. حازت على جوائز عدة في إيران وخارجها، وهي أيضًا مترجمة. لها إبداعات كثيرة جيدة، من أشهرها رواية «أنا سأطفئ المصابيح»، والمجموعة القصصية «ككل العصاري» التي انتقيت منها قصة «بقعة» وقدمتها للقارئ في هذه المختارات. وأخيرًا جعلت خاتمة هذه القصص المنتقاة «حفل السآمة»، وهي قصة مقتطفة من مجموعة «آخِرُ أحسنِ جيل» للقاص والروائي والشاعر وكاتب المسرحية عباس معروفي صاحب رائعة «سيمفونية الموتى» التي ترجمتها إلى اللغة العربية وصدرت عن دار المتوسط بميلانو غرة العام ٢٠١٨م.

إن محتويات أي كتاب يعكس، إلى حد كبير، ما يستحسنه الكاتب شخصيًا. قد يبدو لبعض القراء أن انتقاء هذه النصوص القصصية وضمَّها في هذه المجموعة عملٌ خضع لهوى المترجم أو رغبته بعيدًا عن أي ضابط أو تفسير. ولا بد هنا من أن نتفق على نقطة أساسية، وهي أنه لا توجد مجموعة يمكنها إقناع كل القراء. لقد اخترت هذه القصص المدرجة بين دفتي هذا الكتاب بناء على أحقيتها الأدبية، لأني لمست فيها قدرتها على النفوذ إلى قلب القارئ العربي وإثارة ذائقته، وفتح عوالم القص الإيراني في وجهه. ومع كثرة

النصوص واختلافها وتنوع مشارب كُتّابها وخلفياتهم، ارتأيت اختيار أروع قصة لكل قاص أو قاصة وترجمتها، وحرصت على انتقاء هؤلاء الرواد من بين آخرين كثر، وهم يمثلون تاريخ الكتابة القصصية منذ بدايته إلى الآن، وكلي أمل بأن أعود، في فرصة لاحقة بحول الله، للتعريف بثلة أخرى من كبار القصة الإيرانية الحديثة وترجمة أفضل قصصهم.

أحمد موسى



الفصل 4

صــادق هـدايت (١٩٠٣-١٩٥١م)

ولد صادق هدايت سنة ١٩٠٣م في مدينة طهران من أسرة أرستقراطية. أنهى تعليمه الثانوي في المدرسة الفرنسية بطهران في العام ١٩٢٥م. أوفد إلى بلجيكا ومنها سافر إلى فرنسا. وكانت عودته من باريس سنة ١٩٣٠م.

سافر إلى الهند لكن المقام لم يطل بها هناك فعاد إلى طهران وصرف كفاحه الفكري إلى النقد الأدبي. وفي العام ١٩٤٢م أصدر كتابه «أنغام الخيام». وكان قبلها قد نشر بضع مقالات في اللغة واللسانيات. وأقبل على نشر ترجمات فارسية للعديد من الكتب الأدبية من لغات متعددة، فترجم لتشيكوف وكافكا وسارتر.

ظهرت أولى قصصه سنة ١٩٢٩م في باريس تحت عنوان «حي في قبر»، ثم توالت بعد ذلك قصصه الأخرى كـ «ظل المغول» و«ثلاث قطرات دم» و«علويه خانم» و«الظل المضيء»…

أما روايته «البومة العمياء» التي صدرت أول طبعة لها في بمباي سنة ١٩٣٦م فقد حازت نجاحًا كبيرًا، ولم تظهر الطبعة الثانية منها في طهران إلا في العام ١٩٤١م. ترجمها إلى العربية لأول مرة الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا.

وضع صادق هدايت حدًّا لحياته فمات منتحرًا سنة ١٩٥١ في باريس.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (داوود گوژپشت)، وهي مأخوذة من مجموعة (زنده به گور) [حي في قبر]، ص٥٣، منشورات أمير كبير ١٩٦٣م.

داود الأحدب

«لا، لا، لن أسعى أبدًا وراء هذا الفعل. يجب نسيان الأمر برمتّه. إنه يجلب السعادة للآخرين بينما يورِّطني في متاعب ويسبب لي وجع الرأس. أبدًا، أبدًا... »، همس داود لنفسه وهو يضرب الأرض بعصا صفراء قصيرة يحملها في يده، ويسير بصعوبة وكأنه بالكاد يحافظ على توازنه. كان وجهه الكبير المنتصب على قفص صدره الناتئ قد غاص بين كتفيه النحيلتين. كان شكل منظره من الأمام جافًا وصعبًا ومنفِّرًا: شفتان دقيقتان مشدودتان إلى بعض، وحاجبان رفيعان مقوَّسان، ورموش صفراء متدلية، وخدان عظميان كبيران. لكن هيئته من بعيد كانت تبعث على الضحك بجاكتته الكتانية وظهره البارز السَّنِم، ويديه الطويلتين غير المتناسقتين والقبعة الفضفاضة التي حشرها في رأسه، وخاصة حينما يتّخذ مظهرًا جادًا ويضرب الأرض بعصاه بمشقة.

قبيل الغروب كان قد تجاوز ناصية منعطف شارع «بهلوي» ويسير في الشارع المفضي إلى خارج المدينة قاصدًا بوابة «دولت». كان الجو حارًا نوعًا ما. في الجهة اليسرى تحت نور نهاية الغروب المبهم، اشرأبّت أعناق جدران طينية وأعمدة آجرية تعانق السماء في سكون. وعلى الجهة اليمنى كان ثمّة خندق امتلأ حديثًا، امتدت على جنباته بيوتٌ آجرية متباعدة غير مكتملة. المكان هنا خال نسبيًا إلا من سيارة أو عربة تمر فتثير النقع وترفع الغبار عاليًا رغم رش الماء. على طرفي الشارع وبمحاذاة ساقية الماء غُرست شجيرات طرية وفتية.

كلما أمعن التفكير كان يجد نفسه، منذ فترة طفولته وحتى اليوم، إما عرضة لسخرية الآخرين أو موضعًا لترحمّهم. تذكرّ المرة الأولى التي قال فيها مدرّس التاريخ إن أهالي مدينة «اسبارت» كانوا يقتلون الأطفال مُشَوَّهي الخِلقة، فالتفت إليه كل التلاميذ ورمقوه بنظرة انتابته على إثرها حالة غريبة. لكنه، الآن، بات يتمنى لو يُطبق هذا القانون في كل أنحاء الدنيا، أو على الأقل يمنع الأشخاص المشوّهون وذوو العاهات من الزواج، كما هو معمول به في

أغلب الأماكن، لأنه كان على يقين أن هذا كله ذنب أبيه؛ وجهٌ ممتقع اللون، خدّان عظميان، محاجر زرقاء غائرة وفمٌ نصف فاغر، هكذا استعرض أمام عينيه شريط حالة أبيه وهو يموت كما رآه. الأب العجوز الذي عانى الويلات، تزوج بامرأة شابة فجاء جميع أبنائه إلى الدنيا عميًا وقُلْجًا. أحد إخوانه الذي بقي على قيد الحياة ظل مجنونًا أبكم إلى أن توفي قبل سنتين. كان يقول لنفسه: «ربما كان أولئك سعداء!».

بقي هو حيًا، يائسًا من نفسه ومن الآخرين، يتقزّز منه الجميع. غير أنه اعتاد، إلى حد ما، على حياة الوحدة والعزلة. منذ الطفولة حُرم من اللعب والمرح والركض ولعب الكرة في المدرسة، ومن لعبة القفز على الظهر ولعبة الذئب والخراف، ومُنع كل الأشياء التي كانت تسلّي مجايليه. أثناء اللعب، كان ينكمش في ركن من المدرسة ويأخذ كتابًا يضعه على وجهه، يسترق من ورائه النظرات إلى الأطفال. وفي فترة من الفترات كان يدرس بجد على أمل إحراز تقدم على الآخرين في الدرس والتحصيل على أقل تقدير؛ كان يدرس ليل نهار، ولهذا السبب تصاحب معه تلميذان كسولان كي ينقلا عنه حلول المسائل الرياضية والتمارين المدرسية. لكنه كان يعرف أن صحبتهما مصطنعة ووراءها مصلحة، لأنه كان يرى أن أكثر التلاميذ يسعون إلى الظفر بصداقة حسن خان، الوسيم وصاحب الطلعة البهية والأنيق الملبس.

من بين كل المعلمين، اثنان أو ثلاثة فقط من كانوا يُظهرون له عناية واهتمامًا، ليس من أجل عمله، إنما من باب العطف، لكن رغم ذلك ومع كل الجدّ والكدّ والتعب لم يستطع أن يبلغ شأنًا في عمله.

غير أنه الآن بات خالي الوفاض صفر اليدين، يفرّ منه الجميع، ويستنكف من مرافقته الأصحاب. كانت النساء ينادينه: «أنظروا إلى الأحدب!». وكان هذا النعت يقضّ مضجعه كثيرًا. قبل بضع سنوات تقدم مرتين لخطبة امرأتين، وفي كلتا المرتين قوبل طلبه بالسخرية. إحداهما كانت تدعى «زيبندة» وكانت تسكن في ذات الأنحاء في «فيشر آباد». التقيا أكثر من مرة وتحدثت

إليه. في العصاري لمّا كان يرجع من المدرسة يقصد ذلك المكان ليراها. كل ما يتذكره منها هو خالة مرتسمة بجانب شفتها. وحين أرسل خالته لخطبتها ازدرته الفتاة بهذه الكلمات: «وهل ضرب القحط الرجال حتى أتزوج رجلًا أحدبَ؟!»، ورغم محاولات أبويها إلاّ أنها رفضت وظلت تردد: «وهل ضرب القحط الرجال؟!»، لكن داود ما فتئ يحبها، وظلت هذه أحلى ذكريات فترة شبابه. والآن، عن وعي أو غير وعي، تتراءى له ذكريات الماضي وتستحيل حية أمام عينيه بمجرد أن تطأ رجله هذه الأماكن. كان قانطًا من الجميع. غالبًا ما كان ينتحي سبيل الوحدة في تجواله ويعتزل الناس، لأن كل من كان يضحك أو يتناجى مع صديقه يظنه يضحك عليه ويسخر منه، فيلتفت بمشقة برقبته وهو مرتد جاكتته، بعينيه البنيتين الفاتحتين الطافحتين عروقًا وبحالته الصعبة، ويحدجه بنظرة مزدرية ثم يواصل مسيره. وفي الطريق، كان كل انتباهه مركزًا على الآخرين، فتتقلص جميع عضلات وجهه سعيًا إلى معرفة رأي الآخرين تجاهه.

كان يجتاز بأناة من أمام جدول الماء، وأحيانًا يمزق صفحة الماء برأس عصاه. كانت أفكاره مشتتة ومشوّشة. رأى كلبًا أبيض بشعر طويل يرفع رأسه حين سمع وقع عصاه التي اصطدمت بصخرة، ورمقه كما يرمق شيئًا نحسًا أو على شُرُف الموت، فلم يقدر أن يتزحزح من مكانه وأحنى رأسه ثانية على الأرض. وبشق الأنفس انثنى فتلاقت نظراتهما تحت ضياء القمر، وتسلّطت عليه أفكار غريبة، أحس أن هذه هي أول نظرة بسيطة وصادقة يراها، كلاهما متعوسان مثل حثالة، مذمومان ومطرودان من مجتمع الناس بلا داع. كان يود مجالسة هذا الكلب، الذي فرّ ببؤسه إلى خارج المدينة وتوارى عن أعين الناس، كان يود أخذه بالأحضان وضمّ رأسه بحرارة إلى صدره الناتئ. لكن خطر بباله لو أن أحدًا مرّ من هنا ورآه فسوف يغدو معرض احتقار وازدراء أكثر وأكثر.

حوالي الغروب اجتاز من أمام بوابة «يوسف آباد»، فنظر إلى قرص القمر المشع ضياء، الذي ارتقى بين جنبات السماء في هدوء أول هذه الليلة الحزينة الخلاّبة، وأخذ يتفرج على البيوت ناقصة البناء، وأكوام الآجر المتكدّسة، ومنظر المدينة الناعسة من بعيد، والأشجار، وظُلل المنازل، والجبل الأزرق. فكانت تعبر من أمام عينيه حجب كثيفة رمادية اللون. لم يكن يُرى أثرٌ لشخص، لا من قريب ولا من بعيد. وحده صوت ترنم أبو عطا البعيد والمخنوق يتعالى من تلك الناحية من الخندق. رفع رأسه بصعوبة، كان مهدودًا مشحوتًا بالحزن والكآبة وكانت عيناه حارقتين. كان يبدو وكأن رأسه أثقل على جسده. وضع داود عصاه بجانب الجدول وعبر منه. وغير قاصد، ارتقى الصخور، ونزل بشِدْق الطريق. استدار على حين غرّة فرأى امرأة متلفعة بملاءة وقد جلست على مقربة منه بجانب جدول الماء، فتسارعت دقات قلبه. ومن دون مقدمات صوبت المرأة وجهها نحوه وقالت له وثغرها مفتر بابتسامة:

- هوشنك! أين كنت حتى الآن؟

انتاب داود التعجب من نبرة هذه المرأة البسيطة، وكيف أنها رأته ولم تجفل منه؟ أحسّ وكأنه أُعطي الدنيا بأكملها. كان واضحًا من سؤالها أنها تريد التحدث معه. لكن، ماذا تفعل هنا في هذا الوقت من الليل؟ هل هي شريفة؟ قد تكون عاشقة! لم يستمر تردده كثيرًا، وقال لنفسه فليكن ما يكون! على الأقل فقد حظيت بنديم لعله يواسيني أو يخفف كربي! وكمن فَقَد التحكم في لجام لسانه اندفع قائلًا:

- هل أنت وحيدة، أيتها السيدة؟ أنا أيضًا وحيد. دائمًا وحيد! قضيت عمري كله وحيدًا.

لم يكد ينه كلامه حتى أشاحت المرأة، التي تضع على عينيها نظارات شمسية، بوجهها عنه وقالت:

- إذًا من تكون أنت؟ ظننتك هوشنك، كلما قَدِم يمازحني.

لم يستوعب داود من جملتها الأخيرة شيئًا ولم يدرك ما ترمي إليه المرأة. لكنه لم يكن يتوقع حدوث مثل هذا الأمر. لم تكلّمه امرأة منذ مدة طويلة، رأى أن هذه المرأة جميلة، فسجمت من جسده قطرات من العرق البارد وقال متكلّفًا:

- كلا سيدتي، لست هوشنك. اسمي داود.

أجابته المرأة وقد ارتسمت ابتسامة على ثغرها:

- أنا لا أراك، عيناي تؤلمانني! آ، داود... داود الأحدب... (كزّت على شفتها)، لذلك كان الصوت مأنوسًا لدي. أنا أيضًا زيبندة، هل تعرفني؟

اهتز شعرها المضفور الذي كان يواري نصف محياها، فرأى داود الخالة السوداء بمحاذاة شفتها فاعتصره ألم من صدره إلى بلعومه وتصببت جبهته بقطرات من العرق. التفت يراقب ما حوله فلم يجد أثرًا لأحد. كان صوت ترنّم أبو عطا يقترب، وقلبه يخفق بشدة لدرجة أن أنفاسه تكاد تنقطع. ومن دون أن ينبس ببنت شفة، نهض من مكانه والرجفة قد استحوذت على كامل جسده واعتصرته غصة الحلق، تناول عصاه وعاد من حيث جاء يجرجر خطى ثقيلة، وهو يهمهم لنفسه بصوت فجّ:

- كانت هذه زيبندة! لم تكن تراني... من يدري؟ قد يكون هوشنك خطيبها أو زوجها... كلا... أبدًا... يجب نسيان الأمر برمّته!..لا، لم أعد أستطيع...

سحب نفسه إلى ذات المكان، إلى جانب ذانك الكلب الذي رآه في الطريق، ثم جلس وأخذ رأسه وضمّه إلى صدره الناتئ، لكن الكلب كان قد فارق الحياة!

الفصل 5

جـــلال آل أحمـد (١٩٢٣-١٩٦٩م)

كاتب وأديب إيراني كبير. ولد في العام ١٩٢٣م. حصل على درجة الماجستير من جامعة طهران في الأدب الفارسي. اشتغل مدرسًا في مدارس طهران. ثم درّس الأدب في المعهد العالي وكلية علوم التربية. سافر سنة ١٩٦٢م إلى أروبا في مهمة كلف بها من قبل وزارة التعليم. ثم بعد ذلك سافر إلى مكة المكرمة لأداء الحج، ودوّن خاطرات سفره هذا في كتاب سماه «وضيع في الميقات».

ارتبط بالروائية المعروفة سيمين دانشور وتزوج بها في العام ١٩٥٠م. كان جلال آل أحمد كاتبًا وأديبًا.

تنقسم آثاره إلى عدة أقسام. منها الآثار القصصية والروائية. ومن أشهر المجاميع التي ألفها أشير إلى «مدير المدرسة» وقد ترجمت إلى العربية. و«تزاور العيد»، و«القيثارة». ومن رواياته المعروفة «نون والقلم» وترجمت هي الأخرى إلى اللغة العربية أكثر من مرة.

كما خلّف جلال آل أحمد كتبًا تحليلية، أهمها كتاب» الابتلاء بالغرب»، وكتاب «في خدمة المثقفين وخيانتهم».

توفي جلال آل أحمد في منطقة ريفية في شمال إيران سنة ١٩٦٩م.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (ديد وبازديد عيد)، وهي مأخوذة من مجموعة (ديد وبازديد) [التزاور]، ص٥، منشورات أمير كبير ١٩٧٠م.

تزاور العيد

- مرحبًا، فضيلة السيد الأستاذ موجود؟ أخبروه أني فلان.

- ...

تعالى صوت الأستاذ من داخل الغرفة مجتازًا الصحن وهو يردِّدُ بصوت ممطوط: «السيد... تفضلوا بالدخول... إلى مأوى... درويش... لا صاحب له ولا حارس».

- يا هلا يا هلا، مرحبًا سيدي ومولاي! حللت وحلّ الورد، هذا لطف منك؛ تعال عزيزي! تعال واجلس بجانبي، وأنشد لنا من قصائدك الربيعية العصماء، أنشد كي تنتعش روحنا، فبراعمنا تفتّحت من أجل عشقكم فقط...

- عفوًا فضيلة الأستاذ، هذا العبد... أمامكم؟! عفوًا.

- لا، أبدًا. قسمًا بروحي غير ممكن، يجب أن تقرأ حتمًا، وإلاَّ ستُصاب روحي بالوَصَب.

- فضيلة الأستاذ على اطلاع أني في الأساس لا أنظم شعرًا، فبالأحرى في حضوركم.

- عجبًا! وهل هذا يجوز؟ أنا أعلم أنك لا تأتي إليّ أبدًا بلا شعر. عجّل يا عزيزي..

لكن المجلس لم يكن يسمح بالمزيد من هذه المجاملات والملاطفات. المائدة المستديرة مترعة بالحلويات الإفرنجية والمكسّرات الشهية. والحاضرون من جميع فئات المجتمع، بما فيهم المُلَّا، إنما بلباس عاد ومتحضّر. في ركن من الصالة ازدان الفضاء بأكثر من خمس عشرة مزهرية وُضعت على طاولة صغيرة ومُلئت بزهور ضخمة، شراء واحدة فقط يفوق كلَّ قدرتي المالية.

الأثاث مرتّب ونظيف، والسكاكين والشوكات لامعة، والمزهريات الفضية الموضوعة على المدفئات متلألئة.

في أقصى الصالة، انحشر السيد (ط)، النائب البرلماني، والسيد (ن)، التاجر المعروف، والسيد (پ)، الشاعر المشهور، والسيد (س)، وكيل وزارة المالية، والسيد (هـ)، الوزير السابق، ونفر من الشباب المتعلّم شرّفوا فقط لأجل الحصول على درجة جيدة في نهاية السنة، حسب ما يجول –بالتأكيد - في خاطر فضيلة الأستاذ. الكروش إلى الأمام والرؤوس إلى الخلف والأقدام تحت المائدة الطويلة والأيادي تترنح والأشداق تهرد، واثنان من الحضور يتناقشان.

كانت الأبواب والجدران ملأى بلوحات كبيرة ملونة وسجاجيد حريرية صغيرة ومقطوعات شعرية جميلة دُوّنت بخط آسر. في الأعلى، كانت تتراءى صورة السيد الأستاذ في شبابه، واضعًا إحدى يديه تحت خده مسندًا إياها على طاولة، ويمسك بالأخرى قلمًا، وهو غارق في... لست أدري. لمَ لمَ بل أدري! غارق في إنشاد الشعر بكل تأكيد.

وفي ركن من منتهى الغرفة وُضعت طاولة أخرى أصغر حجمًا، يحيط بها أثاث رخيص، ليس معلومًا لمن أُعدت.

بين الكتب والمجلات المكدّسة على طاولة في ذاك الجانب، والتي كانت بالنسبة لشاب مبتدئ مثلي برهان مثابرة فضيلة الأستاذ وقلة نومه، كانت حمرة غلاف المجلات الإشهارية تخطف الأنظار.

لا أعلم كيف أن السيد (ط)، النائب البرلماني، عرّج في حديثه على عالم السياسة –لأني كنت أكسر حبات الفستق فلم أنتبه - فشرع في الحديث بإسهاب:

- نعم، إن الدولة لا تفرض أي «أوتوريتي»1، ما يعني أنها غير مقصِّرة، تعمل بمنطق «شكان بوغ سوا»2، ولا من يفكر في المجتمع. الجميع «كريتيك»3 فقط، ولا أحد يبادر بعمل «بوزيتيف»4. فعلى سبيل المثال موضوع تسليح العشائر الذي تلوكه كل الألسنة، فقد عدتُ للتو من دائرتي الانتخابية وأقسم بضميري وشرفي أن قطعة واحدة من السلاح لم تُوزَّع، فقط ألف...

قاطعت كلامَه ضجَّةُ متدخّل آخر اندفع من وراء الستارة قائلًا:

- مرحبًا فضيلة الأستاذ المبجّل. أبارك لكم من أعماق الفؤاد. الواجب الذي يمليه عليّ ضميري هو أن أكتحل دائمًا بتراب عتبتكم، لكني أشعر بخجل شديد بسبب التقصير. آمل أن تسامحوني.

ولم يكد يجلس حتى انطلق يحرِّك فمه ويهزُّ رأسه للآخرين. واصل السيد (ط) النائب البرلماني كلامه:

- نعم، يا لها من سعادة إذ شرّف أيضًا مدير جريدة – م-! أنا على يقين أنني سأتحدث الآن في حضور الشعب. نعم، يجب العمل على ترسيخ موقع الحكومات في خضم هذه الأزمات العاصفة التي تهدد استقرار المملكة، وينبغي مساندتها بتقديم مقترحات عملية ونقدية في الآن نفسه. أنا لا أدافع عن الحكومة لكن ليس من المستساغ تقديم هذه الانتقادات أمام أنظار الأجانب...

طار في وسط كلامه الصحفيُّ الذي كان فوه محشوًا:

- أيها السيد! أي حكومة ندعم؟ الحكومة التي ليست لها «برسوناليته»5 كي ترفض الرد على اتصال هاتفي لسكرتير السفارة الفلانية، وكي تتورع عن تكميم أفواه الصحافة، الركن الرابع، وبرأيي هي الركن الأول للحرية في بلد «ديموقراطي». كيف لهذه الحكومة أن تحظى بدعم قِوَى الشعب؟ إذا لم

يكن لها الشجاعة على العمل فلماذا بقيت؟ فلتتفضل بالرحيل، وإذا كان لها فلمَ تصغي لكلام كل من هبّ ودبّ؟

أيّد فضيلة الأستاذ كلامه: نعم، هو كذلك، صحيح. ما تفضلتم به عين الحقيقة.

وأخيرًا حشر السيد (ن)، التاجر المعروف، رأسه بين الرؤوس ونطق:

- إذًا بات واضحًا لماذا يلاجج السيد المحترم الحكومة ويعاندها. آها! نحن السوقيين – يجب أن تعذروني فأنا لست سوقيًا أنا تاجر في السوق - ننظر دائمًا إلى حقيقة الأمور. سيدي العزيز، بمصادرة جريدة واحدة من جرائدك التي لا تَنشرُ فيها –بالطبع وصباح مساء - غير كيل السباب للحكومة، ألا يجب الإطاحة بها! ألا يجب أن نرى ماذا تقدم الحكومات للشعب؟ عزيزي، إذا كنتم تريدون الإطاحة بهذه الحكومة فافعلوا، أنا لا أدافع عنها، لكن بمن ستأتون بعدها؟ بمن هو أسوأ منها! (أجاب نفسه بنفسه وقهقه) لا يجب نكران الحق، ما الذي لم تفعله هذه الحكومة؟! أنا نفسي تعرَّضتْ بضاعتي الضخمة للتوقيف من قِبل الحلفاء في الأقاليم؛ وصلني الخبر عصرًا. وفي الليل قصدتُ منزل السيد رئيس الوزراء وترجَّيْته، جاء عندي مرتديًا «روب دوشامبر»6، وأخبرته بالقضية فاتصل من فوره بوزير خارجيته وأمره أن يكلّم سفير الدولة المعنية ويطلب منه حل المشكلة. وغداة ذلك اليوم كان أمري مقضيًا. أنت...

- ها! ها! ها! إذًا اتضح لمَ السَّيد المحترم يفور من أجل الحكومة –كان هذا الصحفي-، حضرة السيد يتخيّل أنه هو الشعب ولأن مصالحه مؤمنة فإذًا ينبغي تثبيت أركان الحكومة. أنتم أيها السَّادة تؤدون واجبكم حينما تدعمون الحكومة، أنتم استرجعتم أموالكم منها، والسيد النائب المحترم أكيد أنه يتوصل بعجلات سيارته في الوقت المحدد. ولكن نحن لأجل ماذا نؤيد هذه الحكومة؟ ثانيًا، الذنب ليس ذنبكم، أنتم أصحاب السوق حديثو عهد بقراءة

الجرائد، ولا تعرفون من الحكومة والشعب والحق والواجب إلا الاسم. ولا تدركون مغزى الأمور.

اندفع السيد (ن)، التاجر المعروف، وقال على عجل:

- أنا قلت إنني لست سوقيًا...

فضحك الجميع.

ظلت أفواه الطلبة الشباب المساكين فاغرة من فرط التعجب، ويبدو أنهم لأول مرة يتشاركون الأرائك مع النائب البرلماني المحترم والوزير والصحفي –أي قوى الشعب - وعِلْية القوم، فلم يعرفوا كيف يتصرفون. أما الشاعر المشهور فقد غاص في أريكة في أقصى القاعة، وبين الفينة والأخرى كان يتثاءب. ربما كان ينسج في رأسه خيوط قصيدة شعرية لأجل صورة السيد الأستاذ الشاب التي عُلِّقت على الحائط قبالته، هنالك في الأعلى، كي ينشرها غدًا في مجلة «الشعر الجديد».

أُصبت بوجع الرأس وتسرّب إليّ الملل لأني لم أجد في هذا المكان متنفسًا للراحة. مذ أن تحكّم هذا الصحفي المتحذلق بزمام المجلس لاذ السيد (ط)، النائب البرلماني، بالصمت وانهمك في مصِّ بنبونة. انتصبتُ واقفًا وودَّعت:

- سررتُ كثيرًا. أعذروني عن الإزعاج الذي سبَّبْتُه لكم. أتمنى أن تحلّ عليكم السنة الجديدة بالفيوضات والإفادات و...

ولم أدر كيف خرجتُ من البيت وحرّرت نفسي من أسر أولئك الجالسين على الأرائك! لم أنتبه وأعود إلى وعيي إلا حين أسرعت سيارة السيد (ط)، النائب البرلماني، من خلفي في ناصية زقاق فضيلة الأستاذ المُغبر، وأرغمتني على التنحي جانبًا ووضع منديل على فمي.

- وعليك السلام يا عزيز أمك، عيدك مبارك، العقبى لمائة سنة أخرى، تحت ظل إمام الزمان، وكربلاء العليا والنجف المشرَّف... عزيز أمك، أيجب أن أنتظر حتى يحلَّ العيد ويمر عام ويأتي آخر كي تعرّج على هذه الأنحاء! لمَ لا تقوم بإطلالة على جدتك العزيزة هذه؟ يا عديم الشرف! أنا أحبكم كثيرًا، أنتم يا قساة القلوب، لمَ لا تعيرونني اهتمامًا؟ عزيز أمك، أهلًا وسهلًا وألف مرحبًا بك. ما عساي أن أقول؟ فأنا لا أعرف التعبير مثل المتنوّرين: أقدم لك تنهئاتي – ما أدراني - تهنئاتي. كيف لنا، نحن القدماء، أن نتقن هذا الخطاب؟ طيب يا عزيز أمك، تعال إلى هنا فوق المقعد وحلِّ لسانك. ألم تصلك، مؤخرًا، من بنيَّ ورقة أو رسالة؟ لا أعرف متى سيأتي، ما قولك أنت يا عزيز أمك؟ هل سيصل إلى هنا يوم الثالث عشر7 من العيد أم أنه سيقيم مراسيمه في الصحراء؟ حفظه الله ورعاه، يا عزيز أمك. ما شاء الله هو يحب السفر، ولا يرغب بالمجيء. غادر منذ خمسة شهور، ولا يزال لا يرغب بالعودة إلى بيته وحياته وأمه العجوز... لكن يا عزيز أمك... لأجل ماذا يأتي؟ رزقه يوصله الله إليه حيثما كان، وأنا، إلى الآن، لم أبت جائعة ليلة واحدة، إذًا يأتي كي يفعل ماذا؟ هو هناك بجوار أولئك السادة يتبرك بالزيارة، أما نحن فلا نصيب لنا. لمّا أراد الذهاب لم يرض باصطحابي رغم إصراري. حسنٌ يا عزيز أمك، قل لي ما أحوال زوجتك؟ هل هي بخير؟ وأهل بيتك كلهم بخير؟ أليس كذلك؟...

لم تسمح الجدة لي أبدًا بالكلام، ومع أن فمها خال من أي أسنان وحين تطبق شدقيها الفارغين على بعض فإن شفتها السفلى تغطي ثقبي منخرها بالكامل، كانت تسترسل في الكلام وتستفسر عن كل شيء. وأنا كنت مشغولًا بالازدراد وحشو البطن، على الأقل فهنا لا مجال للخجل. كل مكان قصدته إما كنت أخجل أو لا أجد شيئًا. لذلك فقد سمحت لها بالاستمرار في السؤال وانشغلت أنا. واصلتْ كلامها:

- آه يا عزيز أمك! لا تدري كيف مرّ عليّ شتاء هذه السنة! فقد كنت أرتعد وأسير مثل ورق الصفصاف. كادت الوحدة والخوف في هذه الحجرة الكبيرة

يجهزان عليّ. انتهت ذرات الغبار من الصوان ولم ينته فصل الشتاء. آه يا عزيز أمك إنك لا تعلم... أنت ترى أني، إلى الآن، لم أجمع كرسي8 التدفئة. في هذه السنة لم أقم أساسًا بتنظيف البيت وترتيبه. أنت لا تعرف للبرد معنى. عزيز أمك، لمَ تسير هكذا عريانًا؟ لا يمكنك أن تحس بالدفء بسترة واحدة. واحسرتاه عليك يا عزيز أمك! لقد وقفت ابنة «هكم زهرا» إلى جانبي هذه السنة كثيرًا. لولاها لكنت في عداد الموتى هذا العام. المسكينة كانت تأتيني صباحًا وتعدّ لي الطعام وتنصرف ظهرًا. ثم تعود عصرًا وتروح ليلًا. أنا ممتنة لها كثيرًا، أطال الله عمرها. لمَ لا تأكل يا عزيز أمك؟ ألم يعجبك البزر والقمح مع الكتّان9 الذي قدمته لك؟ ها؟ أيها الدّلوع! دع عنك هذه الميوعة. اكسر البزر مثل الناس...

منذ أن وصلتُ وفمي مترع، لم أفكر في محتوى المأكولات. حتى إني نسيت ماذا فعلت بقشر البزر الذي كسرته، لكن الجدة كانت تلحّ وتلحّ فكنت أنشغل بالازدراد وهي تواصل الحكي:

- أي عزيز أمك، هل تعرف أنني أصبت بإسهال حاد، والله قد ستر، كنت أذهب إلى الخارج مثل كلبة –حاشاك-. على فكرة، يقولون إنك كنت تكتب الأدعية في وقت من الأوقات؟ صحيح؟ هل تعرف كتابة دعاء لي أيضًا؟ حسنٌ عزيز أمك، هل من أخبار عن الحرب؟ هذا الولد حسن، ابن منظّف ملابسنا، يقضي الليل في مرفأ الزوارق إلى جانب الراديو. رجله كالوبر لكنه يأتي بالأخبار. كان يقول إن الألمان اخترعوا قنبلة لا أعرف ما اسمها... هو ذكره لكن، عزيزي، لم يبق لي عقل ولا تركيز. هل هذا صحيح؟ حقًا عزيز أمك، إن قلبي لينفطر على أمهات هؤلاء الشباب! مهما يكن فإنهم في نهاية المطاف عباد الله! قلب الإنسان يحترق لوعة. إذا كانوا كفارًا فليكونوا. لست أدري عزيزي، يقولون إن الشباب قضى كله، والآن يأخذون الشيوخ! آخ، آخ. هل يعرف هؤلاء الله ورسوله؟ نحن في ليلة العيد كيف يطاوعهم قلبهم... ؟آخ، أنا قلبي يؤلمني، مساكين! لكن دعني، عزيز أمك، أقول لك شيئًا آخر. ربما هذا آخر

الزمان، ربما يقتل هؤلاء بعضهم بعضًا حتى يمهّدوا الطريق لخروج إمام الزمان ويسهّلوا عليه الأمر –أفديه بنفسي-. ما أدراك بقدرة الله، يا عزيز أمك... ؟

حين امتلأتُ إلى الحلقوم نهضت واقفًا:

- حسنٌ جدتي زادك الله عزة، وأدام ظلك فوق رؤوسنا وأطال في عمرك.

أسرعت الجدة وذهبت إلى الداخل:

- انتظر انتظر، يا عزيز أمك، أحتاجك في أمر... آها... سآتي حالًا... خذ يا عزيزي، رغم أنه لا يناسب مقامك، أرجو المـ... ـعـ... ذ... رة. لماذا لم تأكل هذا؟ تعال يا عديم الشرف! أنا لا أسمع هذا الكلام، يجب أن تفرغ هذه في جيبك...

ناولتني الجدة ورقة نقدية كعيدية وعبّأت جيوبي بالحلوى والقمح والكتّان.

ثالث أيام العيد صباحًا كنت أنا ورفيقي، الذي يخجل من الذهاب وحيدًا لزيارة رئيس إدارته السيد (ب)، والذي كان أيضًا رئيس جمعية الشمال الغربي، نطرق باب بيته. أجابنا من خلف دفة الباب صوت الخادمة الرخيم أن السيد لا يوجد بطهران. حقًّا كم تخون الإنسانَ ذاكرتُه؟ أتذكَّرُ للتو فقط أنه كان قد نشر هذا الإعلان في الجرائد يوم ١٧ مارس آذار:

«بمناسبة النيروز، العيد القومي القديم، أتقدم بتهانيّ الحارة إلى كل الأصدقاء الذين كانوا يشرفونني بمقدمهم كل عام، وأنهي إلى علمهم خبر سفري لبضعة أيام إلى مناطق الجنوب. ولهذا سأكون معذورًا، مع كامل الأسف والندم، عن استقبال الأصدقاء والحظوة بحضورهم خلال هذه الأيام النيروزية، وعلى أمل...».

لم أتذكر باقي عبارات الأستاذ الأدبية. اضطررت لكتابة اسمي أيضًا على بطاقة رفيقي بجانب اسمه المرقون مطبعيًا، وأعطيناها للخادمة رخيمة الصوت التي كانت رابضة خلب الباب ومضينا على عجل في حال سبيلنا. رفيقي الذي كان وجهه ما يزال متوردًا بالكامل، وحتى لا يظهر بمظهر الضعيف، اندفع قائلًا:

- حسنًا إذ نجونًا من ثرثرات السيد بهذه السرعة! ليت كل الزيارات كانت بسيطة بهذا الشكل! بيد أني كنت أفكر أن هذا السيد، منذ أن وصل إلى هذا المقام، دأب على نشر مثل هذا الإعلان في الجرائد يومين أو ثلاثة أيام قبل النيروز. وبعد نهاية عطلة العيد تبيّن أن المحترم لم يغادر طهران إلى أي قبر آخر... بعد ذلك قررت، حين تتاح الفرصة المناسبة، أن أبحث في جرائد ما قبل النيروز للسنوات القليلة الماضية.

قبّلت يد السيد وجلست على ركبتي في ركن من المجلس. ورغم أن أحدًا لم يكن يعرفني غير السيد نفسه صاح الجميع [يا الله]10، ووقفوا احترامًا لي وهم يرددون بلسان عربي مبين:

- [أسعد الله أيامكم].

- [صبَّحكم الله بالخير].

- [عيدكم سعيد].

عبارات عربية صعبة تقاذفت من كل صوب وحدب مع إيماءات وانحناءات للرؤوس. كان المجلس [غاصًا بأهله]. بدءًا من المُلَّا والتاجر والكاسب والأعيان وقارئ المراثي وصاحب الكرفاتة... ومن كل أصناف الناس كان موجودًا بالمجلس. فيما جلس اثنان في مدخل الغرفة بحذائهما إما لأنهما لم يقدرا على خلعه أو أنهما كانا يخجلان من جواربهما المرقّعة.

في وسط الغرفة بُسطت على صينية برونزية كبيرة غليظة سفرة العيد: إناء كبير نسبيًا مزركش برسوم صينية يحوي ماء أصفر، حين شربت منه تبيّن أنهم خلطوا الماء بقليل من الزعفران وملئوا به الإناء حتى آخره. وفي ركن آخر، وُضعت زجاجة ماء ورد لم ينزع القطن من فوهتها بعد وصحنٌ من تمر. أما حلويات العيد فكانت عبارة عن وعاء زجاجي ذي قوائم وحافة مسنّنة مملوء بحلوى «البيدمشك».

ممسكًا بكأس تلوّنت بلون ماء الزعفران وسط الوعاء وبطريقة المبتدئين، كان يرتعش أحدهم وَخَطَ الشيب لحيته الخفيفة، ورأسه حليق، وبيديه المخضبتين كان يُقدِّم للناس ماء الدعاء. فتبرك الجميع كيلا يصابوا بالمرض خلال العام الجديد، ونضحوا وجوههم ورؤوسهم بماء الورد، وحَلَّوْا ألسنتهم بالتمر – ومن كان قليل حياء منهم – زاد الحلوى أيضًا.

كان السيد يقول:

- هذا الطقس كان مرسومًا في هذا البيت منذ عهد المرحوم الوالد.

ثم تمتم [رحمة الله عليه]، وواصل كلامه:

- تعلّم المرحوم طريقة صنع ماء الدعاء المجرّب وآدابه من حاشية كتاب شرح دعاء السمات، وكان كل سنة يصنع بيده الكريمة هذا الماء. وأتذكر جيدًا لمّا كنت صغيرًا كان المرحوم منوتشهر ميرزا فطن الدولة يرسل في أول العيد من كل سنة إلى بيتنا في طلبه...

ثم دخل ضيف جديد فقام وجلس له الجميع وقالوا له [السلام عليك] و[أسعد الله أيامكم]... إلخ. ثم تابع:

- أنا بنفسي جربته كثيرًا. فكلما كنت في المدينة، وأعددت ماء الدعاء هذا وشربته لحظة تحويل العام بنية القربى، إلا وحميت من كل مرض حتى آخر

العام. لكن خلال سنوات السفر والزيارة حُرمت من فيضه، فلم يكن لديّ أمل بالبقاء على قيد الحياة إلى نهاية السنة...

ومرة أخرى وصل ضيف جديد وبدأ القيام والقعود و[أيامكم سعيدة]، بعد ذلك تابع:

- ماء الدعاء هذا صنعته بنفسي على طريقة المرحوم والدي. كتبت الدعاء، وبنفسي غسلته بماء نيسان11 وأضفت إليه تربة كربلاء الأصلية التي أُحضِرها معي كل سنة، وقرأت عليه سبعين مرة «أربعة قل»12 و«ياسين المغربي»13، ثم نفثتُ فيه، ولا أظن أن شيئًا ينقصه...

استرسل السيد في الثناء على ماء الدعاء المجرَّب واستشهد على استحبابه وفوائده بالكثير من الآثار والأخبار حتى إن أحد المريدين عند المغادرة، وبعد رجاء والتماس أخذ لعياله وأهل بيته القليل من زجاجة الورد تلك التي كانت قد فرغت.

ورغم كل هذا، فإن أحد أولئك الصاحبين الذي جلس بحذائه في مدخل الغرفة وكان بياقته المصقولة يطوق عنقه بابيون وتبدو رقبته رشيقة، رفض أن يتناول من هذا الماء المجرب. كنت حاضرًا. لمّا أراد الذهاب لم يعطه السيد العيدية، وفضلًا عن ذلك أراد أهل المجلس جميعهم أن ينهالوا ضربًا على آثاره. أما المعمّم الذي كان جالسًا بجانبي بلحية طويلة وكان كلامه يخرج من فمه العريض الخالي من الأسنان وينفذ من بين لحيته وشعر وجهه فينثر في الفضاء رائحة الحناء، سمعته يزمجر:

- اللعنة على زمانكم، أيها المخنّثون!

بعد ذلك تحدثوا عن زوّار العتبات المقدسات لتلك السنة؛ أحدهم ممن لم يوفق في الدعاء لحظة تحويل السنة الجديدة [تحت القبة المنورة]، ووصل لتوه من السفر، كان يقول:

- جمعني مجلس في كربلاء مع رئيس دائرة الأمن فيها، وسألته هل لديكم إحصائيات زوّار هذه السنة؟ قال نعم، فبحسب آخر الأخبار وصل عددهم إلى نصف مليون زائر. فسألته كم عدد الإيرانيين منهم؟ قال إن العرب أصحاب هذه الديار ليسوا ضمن هذا العدد!

كان الشخص الذي أفاد هذا الخبر جَذِلًا للغاية، فرماه جميع من سمع ذلك بسهام [الحمد لله] الغليظة التي كانوا يتكلفونها من عمق حلاقيمهم. اندفع أحدهم مضيفًا، وكان في منتهى المجلس:

- بروحي! فلتعمى أبصار أعداء آل علي...

كانت رائحة الغليون والنرجيلة قد أفقدتني وعيي، فنهضت و:

- حسنٌ فضيلة الشيخ، هل تأذنون لي بالانصراف؟ لقد اغترفت من فيضكم. أسأل الله سبحانه أن يديم ظلكم فوق رؤوسنا!

- إذًا ستذهبون يا عزيزي! [أيدكم الله إن شاء الله]، ختم الله عاقبة جميع عباده بالخير. خذ عزيزي هذه مكافأتك. مبارك [إن شاء الله].

ومثل قراء المراثي الذين يدسُّون المال خفية في أيديهم أثناء المصافحة، وبينما كنت أعيد تقبيل يد السيد وضع شيئًا في راحة يدي. ترددت في الخروج قليلًا، وتثاقلتُ بضع دقائق وأنا ممسك بيد السيد ملصق شفتيّ على جلد ظاهر كفه الأبيض والناعم. لا أعلم بمَ كنت أفكر وأنا في تلك الحالة؟ لم أفهم هناك شيئًا فخرجت مسرعًا.

أعطاني السيد أول عيدية في السنة وكانت مسكوكة صاحب الزمان الفضية التي لا تُصرف أبدًا ويجب فقط أن تقبع في أسفل الجيب أو تبقى كمال مبارك. أنا بدوري أودعتها، خفية، راحة فقير أعمى كان يشكي ويبكي بجانب

منزل السيد ولا يعيره أحد اهتمامًا في يوم العيد. ثم انصرفت. لقد ظن بالتأكيد أنها قطعة نقدية من فضة.

كنت أود زيارة شخص قرب سكة الحديد. لم تكن حافلات الخط رقم ٤ متوفرة بما يكفي، وبمجرد ما كانت تصل واحدة حتى تغير عليها جموع الحشود المتجهة إما لزيارة الأقارب أو إلى ضريح «شاه عبد العظيم»14؛ احتشدت نساء متلفعات بشوادير الصلاة الموشاة بالورود والنقوش، وملطخة شفاههن بالأحمر وبحواجب غير متناسقة. وتراكم رجال وأولاد ينتعلون أحذية قماشية بيضاء جديدة، وليس معلومًا إلام ستؤول حالة ملابس آكلي حلويات العيد وأحذيتهم الجديدة بعد خروجهم من تلك المعمعة. لم تكن نفسي تطاوعني للانسلال بين الحشود، ليس لأني أيضًا أرتدي ملابس جديدة، كلا، بل لأني لم أكن أود أن يُعطب حذائي القذر تحت أحذية الناس القماشية الوسخة ونعالهم الجديدة الملمّعة وهم يقصدون أقاربهم للتزاور.

لم أبرح المكان حتى انفضّت الجموع وقلّت ولم يبق من يهجم على الحافلة القادمة.

أخذت مكاني في المقعد الثاني من الجهة اليسرى. صعدتْ إلى الحافلة من بعدي امرأة وجلست على المقعد الأول خلف ظهر السائق، رجرجت بطنها الكبيرة ووضعت على كرسي بجانبها ورقًا مملوءًا باللحم. رتّبت على رأسها شادور15 صلاتها الحريري الذي يصوّر بدنها ولا تظهر عليه أي أمارة للعيد. كنت أرى بوضوح وجهها في المرآة الأمامية قبالة السائق؛ كان غبغبها المتدلي ومحاجر عينيها المتورمة يذكّران المرء بقِرَب اللبن البيضاء التي يبيعها الباعة المتجولون صيفًا. القِرَب التي تتمايل يمنة ويسرة على إيقاع حركة عجلات العربات اليدوية فيسمع صوت طَبْطَبة اللبن بداخلها.

كانت تنفث دخّان عقب سيجارة بطرف شفتيها، وبين الفينة والأخرى تمتدّ أصابعها الصفراء المتلاصقة لتزيحها عن شفتيها. كان أسفل حاجبيها الخشن والمُشعِّر، ويبدو أنها لم تحلقه منذ فترة، يجسّد في نظري منظر كانس حارتنا.

لا أذكر هل كان وجهها مغضنًا أم غضًّا فتيًا لكن هيكلها الضخم الذي حجز مقعد شخصين كان يوحي، للوهلة الأولى، أنها امرأة مسنة.

أسندت مرفقها على المقعد خلف السائق، ووضعت عليه رأسها الثقيل بعينيها الغافيتين الناعستين، فتهدل شعرها الأشعث على كتف السائق، فلا هو أبدى اكتراثًا ولا هي أبانت عن إباء. وكأني بها كانت تهمس في أذنه غير أني لم أكن أسمع شيئًا.

كان الركاب يصعدون فرادا وجماعات؛ ثلاثة أطفال متفاوتو السن خلفهم فتاة بالغة سن النضج للتو، ثدياها الصغيران بارزان من تحت قميص عيدها، وبعدهم امرأة ورجل لا يرتديان ملابس شيك ويبدوان بدويين، حجزوا المقاعد من خلفي وجلسوا تتعبهم خشخشات ملابسهم الحريرية والمنشّاة.

كانت المرأة الجالسة أمامي وخلف السائق تتابع بعينيها المتورمتين كل هذه التفاصيل، منذ صعود الأطفال إلى الحافلة وحتى جلوسهم في أحضان أبويهم كي لا يسددوا أجرة مقاعد إضافية.

في البدء تفحصتِ الأطفال جيدًا ثم الفتاة، ولست أدري ماذا تذكرتْ كي تنتقل سريعًا بنظراتها صوب أمها الجديدة الملبس التي كانت قادمة من الخلف. وبعد أن اجتازت هذه الأسرة البسيطة المحتفلة بالعيد من أمامها، استدارت تتعقبهم وظلت ترمقهم بصمت وحيرة إلى أن استقروا جميعًا في أماكنهم.

في تلك اللحظة التي استدارت إلى الخلف ووضعتهم تحت بريق عينيها، لم أستطع إدراك ما كانت تفكر فيه المرأة ولا الذكريات التي ألهبها هذا اللقاء في خاطرها. لكنني خّمنت أشياء: ربما كان لها أطفال في وقت ما وماتوا، أو لست أدري ماذا حلّ بهم. وربما كانت أيضًا تفكر أنها ذات زمان كانت فتاة لها ثديان متماسكان ناهدان، بدل هاتين القِرَبتين الذابلتين المعلّقتين. أو ربما كانت تفكر في زوجها الذي طلّقها، أو في أشياء أخرى لم أدركها.

بيد أني سأعرف فيما بعد كلَّ شيء من خلال عينيها المنهوكتين اللتين ترمقان الخارج من بين أجفان أشد إجهادًا. أدركتُ أن بحرًا من الغم والحزن والحسرة والألم والآمال المبدّدة يتموج في عمق عينيها الخاملتين، ومن الممكن في أي لحظة أن يستحيل دمعًا يهمي من جفنيها.

أعادت رأسها بتثاقل ورمت بعيدًا عقب سيجارتها. حوّلت وجهها ناحية زجاج الحافلة ثم أخفته بكلتا يديها. لم ينتبه أحد لهذه الأمور، فقط أنا من كنت سابحًا في بحر هذه المرأة حتى إني لمحت في مرآة السائق الأمامية بريق قطرة دمع سالت من تحت يديها وسقطت على صدرها. وكأني بكتفها أيضًا كانت تهتز.

انطلقتِ الحافلة واجتزنا حارة «توبخانه». سددتْ ثمن تذكرتها واستلمت من مساعد السائق خمس ريالات فكّة، وترجّلتْ في حارة «سر تخت» ثم مضت في حال سبيلها.

[٢٥] المساعد الذي ناولها فكّة نقودها وكان لا يزال يفكّر فيها سأل السائق:

- من كانت المرأة؟

ومن دون أن يلتفت برأسه، وهو ممسك بمقود الحافلة منعطفًا إلى ناحية أخرى كي يجتاز مطبة في عرض الطريق، أجابه:

- عجبًا! كيف لم تعرفها؟ كانت بروين شلي، زوجة رئيس زري!

1 - عنوان القصة في الأصل الفارسي (ديد وبازديد عيد)، وهي مأخوذة من مجموعة (ديد وبازديد) [التزاور]، ص٥، منشورات أمير كبير ١٩٧٠م.

2 - وردت بالفرنسية في النص الأصلي، وتعني «كلٌّ لنفسه» [Chaqu'un pour soi].

3 - معناها «ينتقد» [Critique].

4 - معناها «إيجابي» [Positif].

5 - وردت بالفرنسية في النص الأصلي، وتعني «الشخصية» [Personnalité].

6 - وردت بالفرنسية في النص الأصلي، وتعني «بيجامة النوم» [Robe de nuit].

7 - هو اليوم الثالث عشر من أول شهر في السنة الإيرانية الجديدة، ويمثل نهاية الاحتفالات بعيد النيروز، حيث يخرج جميع الناس إلى الحدائق والمنتزهات لإحياء هذا اليوم بين أحضان الطبيعة، ولهم فيه طقوس قديمة.

8 - وسيلة تدفئة خشبية الصنع. يضعون الجمر المتوقد تحته ويغطون «الكرسي»، الذي يشبه منضدة بقوائم قصيرة، باللحاف فيكون ما تحته دافئًا، فيمدد المرء، في برد الشتاء، رجليه تحت الكرسي أو ينام.

9 - نوع من المكسرات يحضر بحبات القمح التي تُرقّد لبعض الوقت في ماء الجبن أو اللبن الحامض المملح. بعد ذلك يوضع ليتقطر منه الماء ثم يجفف ويُنسّم ويخلط مع الكتّان.

10 - العبارات التي وضعتها بين معقوفتين [...] وردت في النص الأصلي لهذه القصة كما هي باللغة العربية.

11 - مطر شهر نيسان (أبريل) كانت تجمع قطرات منها ويقرؤون عليها أدعية ويشربونها طلبًا للصحة والشفاء.

12 - السور الأربعة التي تبتدئ بـ قل، وهي: الكافرون والإخلاص والفلق والناس.

13 - هو دعاء يعرف باسم جامع الدعوات، ابتدعه أصحاب الطلاسم وأعمال الدجل، وصفته أن يُقرأ في وسط سورة ياسين أدعية وأذكار وآيات أخرى.

14 - ولي من نسل الحسن بن علي، مرقده يقع في جنوب طهران.

15 - خمار أسود تغطي به المرأة الإيرانية رأسها وكامل جسدها كالعباءة. شادور الصلاة يكون عادة أبيض موردًا.

الفصل 6

بهـــــرام صادقـــي (١٩٣٦-١٩٨٤م)

ولد بهرام صادقي في العام ١٩٣٦م في مدينة نجف آباد. ظل في محافظة أصفهان إلى حدود سنة ١٩٥٦م ثم سافر بعد ذلك إلى طهران لمتابعة دراسته في كلية الطب بجامعتها.

يصنف بهرام صادقي إلى جانب هوشنك كلشيري وأحمد محمود ضمن كتّاب الجيل الثاني للأدب القصصي في إيران الذين برزوا على الساحة بعد صادق هدايت وصادق جوبك وبزرك علوي. وهو أحد أبرز رواد القصة القصيرة الإيرانية خلال القرن الماضي، رغم آثاره القليلة التي خلفها. هذا القاص النابغة لمع نجمه سريعًا بعد تأليف بعض القصص القصيرة الحديثة.

نشرت أول قصة له حين كان عمره عشرين عامًا. وأصدر روايته «ملكوت» (١٩٧١م) وهو ابن الخامسة والعشرين.

لديه مجموعة قصصية أخرى بعنوان «الخندق والأكواز الفارغة» أصدرتها دار النشر «زمان» في العام ١٩٧٠م كما ألفّ بضعة قصص أخرى متفرقة.

توفي بهرام صادقي سنة ١٩٨٤م على إثر أزمة قلبية حلت به وهو في بيته في طهران.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (با كمال تأسف)، وهي مأخوذة من مجموعة (سنگر وقمقمه هاى خالى) [الخندق والأكواز الفارغة]، ص٣٩٧، منشورات زمان ١٩٧٠م.

مع كامل الأسف

اشترى السيد «مستقيم» الجريدة المسائية، وبعد أن أمعن النظر، مجددًا، في معروضات متجر «فرزانة» سلعة سلعة قفل عائدًا إلى بيته. وعلى كل حال يجب توضيح بعض النقاط قبل وصوله إلى البيت: أولًا، فهو يبلغ خمسًا أو ستًا وثلاثين سنة من عمره، ويحلق ذقنه مرة كل ثلاثة أو أربعة أيام، وكان دائمًا مضطربًا مشوّش البال، وأخيرًا وبعد ثمانية أشهر من طرده من شركة الدخانيات16 أفلح في العثور على عمل بسيط في شركة ضخمة (فلنفترض الكتابة على أكياس وعلب القماش). ثانيًا، بيته ليس سوى حجرة صغيرة عليلة تقع في إحدى الحواري النائية، إيجارها مع كل العيوب والمساوئ (من ذلك افتقارها إلى الماء والكهرباء) كان يبلغ خمسين تومانًا17 في الشهر، أي ثلث دخله. والأمر الآخر، أن برنامج عصاريه كان محددًا وثابتًا لا يتغير: المشي من البيت إلى الشارع، وشراء الجريدة ثم التفرج على مهود وعربات الأطفال في متجر «فرزانة»، وأحيانًا لمسها إن سنحت الفرصة، أو حتى تحريك أحد المهود، ثم العودة إلى البيت مشيًا.

لما وصل السيد مستقيم إلى بيته خلع ملابسه وجلس متكئًا على سريره، كان الظلام قد بدأ للتو ينسدل على الأجواء. أشعل قنديله، تذكار أمه الوحيد، ووضعه إلى جانب يده. طفق يفكر لفترة، ثم استلم جريدته وتوجّه، رأسًا، إلى صفحة إعلانات الوفيات والتعازي. وكما العادة وككل ليلة، قصّ بمقصه الصغير الذي كان يخفيه تحت سجاده القديم، أعمدة الإعلانات بدقة متناهية ثم صفّفها وكمش باقي الجريدة ورماها في سطل كبير نسبيًا، وبتعبير أبسط كان يشكّل ركنًا من مطبخه. كان ينتابه إحساس وكأن عبئًا ثقيلًا قد أُزيح من على كاهله، ومع ذلك ورغم أن الشوق والإغراء الشديدين كانا يشدان انتباهه إلى قطعة الجريدة، إلا أنه أراد بقليل من التمنع والإباء أن يضاعف نشوته، لذلك وبرسم العادة، وقبل أن يقرأ الإعلانات الجديدة، قرر إلقاء نظرة على أكوام أعمدة الجرائد المقصوصة التي جمعها طوال شهور وسنوات. نهض

وأخذ مجموعة منها من فوق المدفأة، وبعد أن فرشها على الأرض بدقة وانتظام –وكأنه يريد أن يأخذ فألًا بالورق - قرّب القنديل أكثر وجلس هو في مكانه السابق. لكن هذه المرة استلقى على هيأة السجود وأسند خديه على يديه. حسنٌ! صار بوسعه الآن أن يقرأ ما كان قد قرأه لمرات عديدة:

«بمناسبة وفاة المغفور له السيد آقاسيد، الحاكم الصالح، طاب ثراه والجنة مأواه...»، «بقلب مفطور ننعي إلى الأصدقاء والمعارف وفاة السيدة صغرا شعيبي التي وافتها المنية على إثر حادثة سير مفاجئة...». «بأسى عميق... عائلات... و... موت الشاب المحروم...».

لم يكن السيد مستقيم نفسه يدري لمَ ومنذ متى تعلّق قلبه بهذه التسلية (مصطلح أطلقه بنفسه على هذه العادة منذ البداية). كل ما يذكره هو أنه، منذ سنوات، وبالضبط خلال سنوات الخيال الطلق، حين كان ينتقل من المرحلة الابتدائية إلى الثانوية، دار في خلده بإلحاح فكرة كتابة تاريخ وفاة العظماء والكبار في دفاتر خاصة ينظمها وفق ذوقه، وقد أنجز هذا العمل. بعد ذلك وصل دور المعاصرين من العلماء والشعراء والرجالات الكبار، الذين سُجّلت أسماؤهم، الواحد تلو الآخر، في سجل السيد مستقيم. وكان بعد ذلك أن اهتدى، ذات يوم، إلى استدلال مفاده: «الناس البسطاء! البسطاء الذين يساقون إلى هذه الدنيا كالخراف، ويموتون كالنعاج، مليونًا بعد مليون. يقضون كل يوم تحت عجلات السيارات وأكوام الأنقاض، يصابون بالرصاص، ويبتلون بالأمراض، وكأنهم وضعوا أقدامهم في هذه الدنيا فقط ليموتوا. لكن على الأقل فأمورهم كلها طبيعية أكثر من هؤلاء الفزّاعات المنتصبة في الحقول والمزارع الذين نسميهم عظماء. إذًا يجب أن أكون على بيّنة من موت هؤلاء الناس المجهولين والحمقى، الذين خُلقت من أجلهم الدنيا والحياة وكل متاعها المحقّر...».

ومع ذلك، لم يكن السيد مستقيم ليبتهج، ولو للحظة واحدة، لقراءة خبر موت الناس، والغريب أنه لم يكن يكتشف أي شيء جديد في تكرار هذا العمل أو

التفكير فيه. والحق، أن الأمر لم يكن يتعلق بإدمان أيضًا. ربما يمكن القول (يجد هذا الافتراض مصداقه في أن السيد مستقيم كان يقرأ خلال الشهور والسنوات الأولى باقي مواضيع الجريدة برغبة ولهفة أيضًا) إنه كان يبحث عن شيء ثاوٍ بين سطور إعلانات العزاء لم يجده في الصفحات الأخرى، فكان يريد، من وراء الاطلاع على أخبار موت الناس البسطاء، الوصول إلى حالة لم تكن تنتابه وهو يقرأ أنباء موت العظماء وغير العاديين.

ذات زمان ظل السيد مستقيم يفكر لمدة شهر كامل في ما سوف يحدث لو أنه مات، واهتدى خياله إلى مثل هذا التوقع:

زوجته الجميلة غلوريا تخلع بلوزتها الحمراء المكشوفة من أعلى وترمي بتنورتها الخضراء المنكمشة في ركن، ثم ترتدي الملابس السوداء، ملابس العزاء. آه! جمالها سوف يثير فتنة! يا للنار التي ستسعّرها عيناها الحمراوان الباكيتان مع تلك الطرحة السوداء، ومن دون ماكياج! تبيت الليل حتى السحر تسكب الدموع على نعش زوجها الذي رقد في نوم أبدي بطلعة هادئة وشعر مجعّد وحالة ملكوتية. ترفع يده الباردة المتجمّدة إلى فمها وتقبّلها بشفتيها الشهوانيتين الغليظتين اللتين غدتا الآن تحترقان بنار الحرقة. لكن الأولاد... آخ! «هوشي» يصرخ في مهده ويلوّح بيديه في الهواء، كأنه يريد أن يطرد عنه كابوسًا مرعبًا. «مهري» تهدهد مهده ولكنها لا تعرف ما الخبر. وفي ركن من البيت، انحشر «أحمد» و«سوزي» في حضني بعضهما بعينيهما الحائرتين ووجهيهما الملتهبين. بينما أحمد الأكبر سنًا يجبر خاطر سوزي بهذه الكلمات: «لا داعي للقلق، بابا سافر، الأمر هيّن، سوف يعود ثانية ويركبنا على ظهره، ويأخذنا إلى الروض، ويقبّلنا... «، فتجيبه سوزي وهي تشهق بكاءً: «أنا بأذني هذه سمعت الطبيب يقول إن بابا قد مات، وكان يطلب من أمي الكفّ عن البكاء».

غداة ذلك اليوم وفي أولى ساعاته، أبرقوا لأبويه اللذين يعيشان في إحدى البلدات في الشمال، وأخواته وإخوانه الذين يعيشون في المدن الوسطى

والجنوبية للبلاد يخبرونهم بوفاته. تتحرك الطائرات والقطارات والسيارات ويصل الجميع قبل مخايل الغروب. البيت كبير وهناك ما يكفي من الغرف لاستقبال الجميع. لوازم العزاء أيضًا مهيأة. يذاع خبر هذه السانحة على أمواج الراديو في برنامج الإعلانات التجارية الصباحية لإخبار الأصدقاء والمعارف.

واي، يا له من محشر ومصيبة أقيمتا عند الغروب! ارتمت غلوريا على التابوت وهي تصرخ وتصيح: «لا تأخذوه، لا تأخذوه! أنا أحبه، أنا أحبه... «، بينما الأطفال يضربون رؤوسهم ويلطمون وينتفون أشعارهم، وفي هذه الأثناء...

لقد ذاق السيد مستقيم طيلة شهر بأكمله لذة هذه اللحظة الخالدة بكل جوارحه ومن أعماق فؤاده؛ وعلى نحو غامض مثل معجزة ستنبعث الحياة في السيد مستقيم، ودفعة واحدة ينهض من التابوت ويحدج الجميع بنظرة ظافرة. بالطبع الحيرة والشّده اللذان سادا الفضاء ووصلا حد الهلع والخوف استغرقا بضع دقائق. لكن كل شيء سيتغيّر بسرعة: غلوريا تدخل مسرعة إلى إحدى الحجرات وتعود بعد بضع ثوان مرتدية بلوزتها الحمراء المكشوفة وتنورتها الزرقاء (زرقاء أم خضراء؟) المنكمشة وماكياجها الجذّاب. أحمد وسوزي يشرعان في قراءة الشعر الذي تعلماه للتو في الروض، بصوت عال. هوشي يغط في نوم هانئ. مهري تكفّ عن الهدهدة وتلتفت إلى أفراد العائلة ومعارف أبيها الذين أخذ كل واحد منهم إما يصيح ويصرخ أو يرقص أو يضحك أو حتى يبكي...

بعد ذلك بشهر، فكّر السيد مستقيم بواقعية أكثر في هذا السؤال: «ماذا سوف يحدث لو أنه مات؟» وانتهى تفكيره إلى النتيجة التالية: «واضح ما سوف يحدث، الموضوع بسيط للغاية. سوف يخبر صاحب البيت، بكل بغض وانزعاج، قسمَ الشرطة بأن أحد مستأجريه، الذي كان يدين له بإيجار ثلاثة شهور، قد انتقل إلى الدرك الأسفل. في البدء، لن يكترث أحد في مخفر الشرطة، لكن حينما تصل في هذه الأثناء زوجة صاحب البيت إلى الساحة وهي تسبّ وتلعن، يأمر ضابط الدوام أحدَ حراس الأمن أن يخبر الطبيب

الشرعي ودائرة الصحة ودائرة الإحصاء وقاعة التشريح في كلية الطب. بعد فترة يحملون جثته ويرمونها داخل عربة نقل الموتى مثل جيفة حمار متعفن ثم يقتادونه إلى وجهته. الأكيد أنهم سيحقّقون مع زوجة صاحب البيت:

- هل كان متزوجًا؟

- كلا.

- كم ترك من أولاد؟

- سيدي لم يكن له أولاد. أخبرتك.

- أم، أب، أخت، أخ، قبيلة وأقرباء، وغير ذلك من هذه الألاعيب؟

- لا أحد. الشقي الشريد، كان وحيدًا، لا أحد غيره. سنوات طويلة مرت على هلاك والديه. ولا كلام عن عائلة أو أسرة. ربما كان له بضعة رفقاء ومعارف، كانوا معه في شركته أو في داهية أخرى لا علم لي بها، لكنهم أيضًا اختفوا مؤخرًا...».

استقر رأي السيد مستقيم أن المصلحة تقتضي أن يترك هذه القضايا ولا يعود للتفكير في ما سيحدث له لو أنه مات أو رأى مجلس عزائه... لذلك، بعد أن دقق البحث في كل قطع الجرائد القديمة، أعادها إلى وضعها الأول؛ وضعها فوق بعض ورتبها ثم رفع فتيلة القنديل وتناول جريدة الليلة المصففة. ابتسم: «حسنٌ، دعني أرى ما الأخبار هذه الليلة، كم سيصير عددهم، كم نفرًا سيصبح من ذوي النفوذ، وكم سيغدو من دون لون ولا رائحة».

قرر أن يقرأ: «بمناسبة وفاة السيدة الملكة، والدة...»، «... السادة الأفاضل الذين شاركوا في مراسيم تشييع جنازة نجلي العزيز...»، «بأسف شديد ننعي المرحوم السيد مستقيم، الموظف السابق في شركة الدخانيات...»، «نتقدم بالتعازي إلى الأسر المحترمة المفجوعة إثر المصيبة التي ألمّت بهم...».

تابع السيد مستقيم قراءة الخبر حتى نهايته ثم تمتم بين شفتيه: «ليس هناك ما يثير، كما العادة». غير أنه لم يكد يضع قطعة الجريدة فوق باقي الأوراق حتى اندفع متأججًا: «ها؟»، فسحب الجريدة بهدوء ناحية القنديل كأنه يتوجس من أن تشبّ النار في يده دفعة واحدة. سمّر عينيه فيها. وتمتم مرة أخرى، لكن بهدوء أكثر لدرجة لم يسمع همسه: «ها؟». لكن كلَّ شيء كان واضحًا وجليًا أمام عينيه: «... السيد مستقيم، الموظف السابق في شركة الدخانيات...»، خاصة وأن الخبر رُقن بالبنط العريض مقاس اثني عشر، ولا وجود لخطأ إملائي: «مستقيم» بالسين والقاف... ثم تابع: «ستقام مراسيم تأبين المرحوم بعد زوال يوم غد بمنزل أحد أصدقائه، شارع شهرت، رقم ٣٦».

إذًا هكذا؟ ربما كان من الضروري أن يصاب بالهلع، لكنه استغرب كثيرًا. لا... لمَ عليه أن ينزعج أو يغرق في التفكير؟ يجب أن يضحك، أن يضحك طويلًا. لمن أتيحت مثل هذه الفرصة الذهبية من قبل؟! وأي رجل سعيد أو امرأة محظوظة وصلا إلى هذا الحد من السعادة حتى يشاركا في مجلس تأبينهما ويسمعا بأذنيهما ما يقال من كلام في حقهما؟ أنظر إلى هذا المصير وهذا التوفيق الذي لم يكن حليف أحد من العظماء والعلماء والرجال الاستثنائيين، وحتى الأنبياء والأئمة... آه، لكن هل حقًا مات؟! يا له من سؤال عجيب! على الأقل، منذ أمس إلى اللحظة لم يكن موجودًا في هذه الدنيا. لكن هذا القنديل... أنظر أنا أرفع وأحني فتيلته. هذه رجلي... أمدُّها ثم أجمعها. وهذا أيضًا صراخ زوجة صاحب البيت... كم هي تفحش (كما العادة)!. حسنٌ، إذًا أيُّ شيء مات فيّ؟ ما هذه الكذبة؟! ما هذه الفكرة التي يريدون فرضها عليّ؟! لكن... هل من الممكن؟ هل ممكن أن أخطئ؟ ما الذي يثبت أنهم لم يصنعوا قبري على شاكلة بيتي السابق؟ أنظر، الحق يقال إن البيت شبيه بالقبر، وهذه الأصوات... حسنٌ، حسنٌ، هذه أيضًا أشباح وكائنات تطارد الميت في ليلته الأولى. كم هو جميل أني أراها! لا مناص من ذلك. تفضلوا أصدقائي الأعزاء! مرحبًا بكم! للأسف ليس هناك عشاء، ما حضر! أنا، كل ليلة، أتناول ما

حضر. وفي الزوال أقصد إحدى هذه المقاهي... مكانكم شاغر، أتودون فاكهة؟ عصير؟ أرجوكم، خذوا راحتكم في الجلوس، لا أحد بالدار. زوجتي؟ ذهبت إلى السينما قبيل مجيئكم. أودعت الأطفال عند جدتهم (لا مزاج لدي للإنجاب، عفوًا أقصد لا أعرف كيف أنجب؟)... وعلى كل... أترون هذه الدفاتر؟ ذكريات شبابي. تدركون قصدي بالتأكيد؛ إنها دفاتر حساب التوفير الخاصة بالأولاد. رصيد كل واحد منهم أربعة آلاف تومان. قليل؟ نعم المبلغ قليل، لكن ما ذنبي أنا؟ قمت بما أقدر عليه.

منذ الأيام الأولى كان لديّ أربع أخوات، ماتت الواحدة تلو الأخرى. أما إخواني، فاثنان منهم تركانا ومضى كل واحد منهما في حال سبيله. كان ذلك منذ سنوات، أتسمعون؟ منذ سنوات. أما أنا فكنت أدرس وفي الوقت نفسه أحصل على مصروفي ومصروف والديّ العجوزين. بعد ذلك، أنتم تعرفون أكثر مني، ماتا. ثم صار الوضع هكذا. أي كما تلاحظون... إنني أعترف، أكتبوا هذا. ماذا؟ أطفئ المصباح؟ فليكن. آه ما أشد الظلمة والدفء! يا له من جو خانق! ورغم ذلك لم يُسمح لي بالنوم في الفناء. لكن أنتم كيف ستكتبون؟ عذرًا لأني لم أعرف أنكم قدِمتم من تلك الدار. لقد متُّ. هذه أصابعي، ما الصوت الذي تحدثه. وهذه رجلي لا تتحرك البتة. آنذاك في شبابي (أما الآن فقد غدوت هرمًا) كنت أتذكرهم باستمرار. يا لها من سنوات مضت! عشر سنوات وأنا أفكر في الحصول على غرفة صغيرة في ركن ما، تكون مستقلة وبعيدة عن الجيران ولا تطوّقها رقابة أب ولا فضول متطفلين. أتعلمون ماذا كنت أفعل حينئذ؟ وإلا كيف أمكنني التعرّف إلى غلوريا، زوجتي الأولى؟ رأيتها هكذا في الشارع، وكنت أصطحبها طيلة شهر إلى الحجرة ذاتها وأبيت حتى الصباح أناجيها وأسامرها، وفي الأخير أقمنا عرسًا. لكن هذه القصة متعلقة ببضع سنوات موالية. لماذا أخلط كل شيء؟ إنه ليس تقصيري... صدقوني أنا لا أودّ خداعكم. باختصار، عوض حجرة واحدة، لم أحصل حتى على متر مربع واحد من أرض جرداء خالية. آنذاك قرّرت الزواج (هل أخبرتكم أنني لم أكن أجرؤ على الذهاب إلى الماخور؟) وكنت قد مللت من فتيات الشارع. طلقت

غلوريا وتوجهت إلى «أفسانة»، يا للخسارة (فتاة شَيِقة!) كان شرطها أن أشتري بيتًا جميلًا وأهديها إياه. لكن أنّى لي أن أشتري بيتًا؟ ثلاث سنوات وأنا أحاول عبثًا، وفي الأخير تجاهلت أمره. مرة أخرى، لم يكن بيدي حيلة. كنت رجلًا، شابًا، يحدوني ألف أمل. دعوني أتجاوز عن مئات العوامل والموانع التي كانت تبقيني بعيدًا عن النساء (قرأت هذا في إحدى المقالات) ويومًا بعد يوم كان هذا الاعتقاد يترسّخ لدي ويستحيل إيمانًا، وهو أني لا أستطيع أن أواجه امرأة، وحتى لو جاءت أفسانة إليّ، الحقيقة أنني كنت أسأل نفسي هذا السؤال: «هل تستطيع إرضاءها وإسعادها؟ هل تأنس في نفسك القدرة والجرأة على ألا تفكر في هذه المخاوف والأفكار الباطلة التي عشّشت في مخّك طوال سنوات مديدة؟!».

حسنٌ معلوم أني كنت لا أستطيع. حينذاك اضطررت إلى أن أعقد زواجي على «كمالة» زوجتي الحنون التي ذهبت الآن إلى السينما. ما أجملها! ترتدي ملاءتها دائمًا وتتحجّب، تشمئز من الماكياج وهذه الموضات الغريبة. لكن صدقوني إنها ذات ذوق رفيع. ما أجمل عينيها اللوزيتين المتلألئتين! غير أني أحب نهديها أكثر من أي موضع آخر في جسدها. كل ليلة، أمص حلمتيها الصغيرتين والنديّتين (أوه أرجو المعذرة). لكن ما العمل، مع تعاستي هذه. أقسم أنني إنسان تعس؛ لا دَخْل لي ولا بيت ولا حياة ولا توفير ولا أهل ولا أقارب. وفضلًا عن ذلك فأنا دومًا قلق مضطرب، قلقٌ على مستقبل كمالة وأولادي. أخشى أن تملّني كمالة وتعاشر رجلًا آخر. آخ، أنتم لا تعرفون هؤلاء النسوة! يريدون المال فقط، يريدون السيارة فقط، يريدون الملابس الجديدة والماكياج الجديد فقط. كيف لي حينذاك أن أتزوج امرأة بمائة وخمسين تومانًا في الشهر؟ لا حلّ لي سوى العزوبية، لكنكم تضحكون؟ يجب أن تضحكوا. رجل ميت يذهب إلى مجلس تأبينه! مساء يوم غد... العشاء... العشاء... هذا كل ما لدي، ما حضر... والغذاء. كل حياتي على هذا المنوال. لكن، الآن وقد متُّ، ما حاجتي إلى تناول العشاء والغذاء؟!

كان مساءً دافئًا. حلق السيد مستقيم ذقنه ومشط شعر رأسه ومرّر فرشاة على ملابسه ولمّع حذاءه القديم، وانطلق بخطى واثقة نحو شارع شهرت. ورغم أنه لم يأكل شيئًا منذ ليلة أمس، إلا أنه لم يشعر بالجوع. كانت لديه رغبة عجيبة (وليس كبيرة) في التدخين. اشترى علبة سجائر وتناول واحدة منها لإشعالها فإذا به يفكر في نفسه: قد يكون اليوم أحرّ يوم في فصل الصيف. لم يكد يصل إلى المنزل رقم ٣٦ حتى أدرك من مكبرات الصوت أنهم أقاموا له مجلس ترحّم مشرّقًا. لمّا دخل أرشدوه إلى غرفة كبيرة كانت ممتلئة بأشخاص غرباء. ومع ذلك، تمكّن من النظرة الأولى أن يتعرّف نفرين من زملاء العمل القدماء، اللذين لا يزالان يزاولان عمليهما في شركة الدخانيات (واضح أنهما من احترقا شوقًا من أجله). وضعوا طاولات في كل أنحاء الغرفة جلس إليها الرجال الذين يذرفون قطرات من الدموع. أما المعزّون الآخرون فقد جلسوا القرفصاء على السجاد وهم يحاولون إضفاء مسحات من الحزن والخفقان على محياهم؛ بعضهم يضرب على جبهته بهدوء، والبعض الآخر أمسك بذقنه واستغرق في التفكير وكأنه مشغول بحلّ أعوص القضايا العلمية. أمرَ صاحب البيت أن تُخلط كؤوس الشربات الكبيرة بقهوة ثخينة وتُقدَّم للجميع، ربما ليكمل جميله تجاه صديقه الفقيد أو ربما لسبب آخر مجهول. الجميع كانوا يحدجون كؤوس القهوة بنظرات تشي بالذعر، وفي الآن نفسه يجتهدون في تحريك شفاههم والتظاهر بقراءة الفاتحة وينتابهم القلق كيف يجب أن يتحملوا هذا النّكد. فيما كان مُلَّا ضخم الهيكل يواصل إلقاء كلمته (كان المُلَّا رجلًا متفتّحًا) قرب الميكرفون وقد وضع، من شدة الحرّ، عمامته على التريبون وعّلق عباءته على مسمار:

- رحم الله المرحوم وأسكنه جنات الخلد مع الحور العين. كان رجلًا فاضلًا! اصطبغ لون شعره بالرمادي (تغيّرت تقاسيم وجه المُلَّا للحظات وامتقع لونه، ثم فجأة قال: بالبياض) في سبيل خدمة الدين والعباد...

قال السيد مستقيم لنفسه: «كذّاب أفّاق، أي شعر في رأسي صار رماديًا؟».

- ... وعوض أن يلج باب الكذب والخسّة كما فعل الآخرون، فإنه سلك طريق الحلال، وكسب قوت يومه وعياله من عرق جبينه وكدِّ يمينه حتى أصابه هذا المصاب الجلل. أمثال هؤلاء الناس قال في حقهم حضرة الصادق عليه السلام...

في هذه اللحظة بدأ السيد مستقيم يفكّر لماذا إذًا لم يتوجس أحدٌ من حضوره. وحتى رفقاؤه القدامى المتسببون في موته (عادة ما نعلّق سبب موتنا على مشجب رفقائنا السابقين) كانوا يحدّقون فيه بذات النظرة الغبية واللّامبالية. شيئًا فشيئًا، سيثير هذا التفكير الذعر في نفسه: «الأوغاد، ماذا يقصدون من وراء هذا الفعل؟ أيريدون السخرية مني أم تجاهل موتي؟... سوف أحرق آباءهم!».

كان المُلّا صاحب الهيكل الضخم ما يزال واقفًا خلف التريبون، لكنه كفّ عن الكلام، وبدلًا عنه كان رجلٌ آخر يقرأ القرآن بصوت عال في ركن من البيت. بعد خمس دقائق من التلاوة شرع المُلّا من جديد، لكن هذه المرة انطلق في الإنشاد بصوت بليغ:

ذلك الحبيب الذي كان منزلنا، بوجوده، مهبطًا للملائكة

كان من مفرق الرأس إلى القدم بريئًا من العيب بريئًا

لم يعرف...

لم يعرف سبب موته ولا... أين ذهب

منذ الأزل وعادة الفلك تمزيق الستر والحجب18

استوى السيد مستقيم واقفًا وذهب صوب المُلّا بتؤدة، هذا الأخير الذي كانت أنشودته تشرف على نهايتها تريّث قليلًا ثم رمق السيد مستقيم بنظرة تشي بالعطف وسأله:

- حضرة السيد! هل وددت بكلمة رثاء في حق المرحوم؟

رد السيد مستقيم:

- حان دور ميّت سعيد أحاط علمًا بموته ليلة أمس.

اتسعت عينا المُلَّا الكبيرتان حتى كادتا تغادران محجريهما، وفي هذه الأثناء اهتزّ غبغبه وانقبضت قفاه العريضة. فاندفع قائلًا: «حاضر سيدي، في الحال»، واتّجه صوب الميكرفون:

- لأن أحد معارف المرحوم، طيب الله ثراه، يريد أن يلقي كلمة، سأنهي أنا عملي. أيها المعزّون، في هذه اللحظة روح المغفور له قابعة في ركن من هذه الغرفة تنظر إلينا وتسمع كلامنا. في هذه الأثناء، الملائكة والجن تخفَّوا بين الكراسي والمنافذ وبعضهم يتمشّى أيضًا حتى يستطلعوا رأينا في عمله وأفعاله. اعلموا أنهم يسجّلون كل هذه الآراء ويعرضونها على السدة العالية لعظمة العدل الإلهي، وبحسبها، يتحدّد ثوابها وعقابها. لذا فإني أطلب منكم الشهادة. ليرجع كل واحد إلى ضميره وقلبه ويجيب، لعلنا نوصل مددًا لذلك المرحوم المغفور له، لعلنا نخفف عنه ذنوبه غير المقترفة. يا أمير المؤمنين! أيها السادة! كيف كان المرحوم؟

صاح الجميع:

- كان رجلًا صالحًا.

- للمرة الثانية قولوا صادقين كيف كان الرجل؟

صاح الجميع:

- كان رجلًا صالحًا.

- قولوا حتى أرى أي رجل كان؟

لكن قبل أن يجد الناس فرصة للجواب، نحّى السيد مستقيم المُلَّا جانبًا وارتقى خلف التريبون وقال في أوج حيرة الحضور ودهشته:

- كيف؟ «هل كان رجلًا صالحًا، هل كان رجلًا طيبًا؟»، لا أحد بإمكانه أن يقول صالحًا أو طالحًا، إلا هو بنفسه. موظف شركة الدخانيات السابق يتحدث إليكم الآن، افتحوا أعينكم...

بلغ استغراب الناس وحيرتهم مبلغًا سلب منهم القدرة على القيام بأي شيء. والكل، بمن فيهم صاحب البيت ومنظمو الحفل، كان يحاول مواجهة الموقف بانتحاء سبيل الصمت والصبر، وكأنه استُغفل من قِبَل عدو. بينما كان السيد مستقيم يصرخ مثل قائد يصيح على جمع من الأسرى:

- لا أحد بمقدوره أن يحكم هل كان طيبًا أم سيئًا. هذا المُلَّا نفسه هو تمثال للشهوة والرذيلة. أنا أعرفه، لديه أربع نسوة سمينات وسيمات. وأنتم أيضًا، ذاك الذي في الجهة اليمنى كان صديقي، وكان يسرق، اشترى ثلاثة أو أربعة منازل. ويقال إنه رُقّي إلى رتبة أعلى. بعد هذا كيف تبدون أنتم رأيكم فيه؟ أتعلمون أيها الأوغاد كم كان ذلك المرحوم يحب أولاده؟ كل يوم عصرًا، كان يمر بالشارع ويطل على متجر فرزانة ويتفرج على المهود الجديدة ويسأل سعرها، لأجل ماذا؟ أتظنون أنه كان يحب الظهور؟ كلا، أيها الأشقياء الملعونون! لكي يكون أبناؤه أكثر رضا وسعادة. سجَّلَ «فريبرز» في أفضل روض للأطفال بالمدينة، وكان يوصله بنفسه في سيارته كل صباح إلى باب الروض، ثم يعود من توه ويوصل «ستارة» إلى مدرستها. وقد أصبح ماهرًا في هذا العمل لدرجة أنه لم يكن يؤخر «منصور»، فكان ينزله أمام باب الثانوية في الوقت المناسب بالضبط. حينئذ كان يذهب هو إلى إدارته (كان مديرًا عامًا). وقد وفّر لزوجته الجميلة «كمالة» كل شيء. لكم أن تخمّنوا:

بيت مريح، وحديقة مكشوفة، ومال وفير، وسيارة، والأهم من كل شيء الحب، حب طاهر سماوي. فيما أنتم أيها المجرمون أشباه هذا المُلَّا خدعتم زوجاتكم، ولطختم سمعتهن، ثم جئتم وبدأتم تصرخون: كان رجلًا صالحًا. هل هذا هو معنى الصلاح، أن يترك زوجته وأولاده جياعًا؟ يتزوج وهو يعلم أنه لا يستطع الباءة، فيجرجر بنت الناس إلى التعاسة؟ اللعنة عليكم! لماذا نشرتم الخبر في الجرائد؟ لمَ أقمتم مجلس التأبين هذا؟ أيها الأوغاد، ألا ترون؟ هل أعينكم عوراء؟ أنا هو بشحمه ولحمه: السيد مستقيم، الموظف السابق في شركة الدخانيات، بالحروف الإثني عشر بالبنط العريض ومع الأسف الشديد. للأسف الشديد، لقد ارتكبتم حماقة، أنا حيّ أرزق. أنا حيٌّ أيها السادة، أليستْ تُعرف الحياة بالتنفس؟ آها! ها أنا تنفست. أليستْ تُعرف الحياة بأكل شيء؟ افتحوا أعينكم: هذه علكة، أنا أمضغها. أليستْ تُعرف الحياة بالنوم؟ أنا أنام كل ليلة. أتقولون إني لم أحب، لم أحظ بمحبة، لم أذق طعم الراحة؟ شكرًا لكم. لكن عوض المواساة، من الأفضل أن تكفّوا عن هذه المؤامرات، لا تحاولوا إقناعي بالموت. أتفهمون؟ أنا ما زلت أملك غرفة صغيرة. صحيح أنني مدين بإيجار ثلاثة شهور، لكن صاحب البيت، إلى الآن، عاملني وفق الأصول. حسنٌ، فرشت سجادتين قديمتين في حجرتي، ليستا بالقليل... ما زلت أنام على السرير. في الصباح أذهب إلى العمل، لديّ عمل غبي ومتعب ومهين (طبعًا أنا أحمل شهادة الدبلوم)، لكن راتبي مائة وخمسون تومانًا في الشهر. صحيح أن غرفتي رطبة لكن الشمس والهواء موجودان خارج البيت. بعد ذلك، أتناول غذائي وعشائي بانتظام. ولكم أن تتعجبوا كثيرًا فأنا جانتلمان كبير؛ أشتري الجريدة كل يوم. حسنٌ، أي غمّ لدي؟ ماذا ينقصني؟ لماذا لا يجب أن أكون حيًا وأشكر النعمة؟ فضلًا عن ذلك، الأمل، الرجاء... ليبقى الكلام بيننا سرًا ولا تفشوه، وعدتني زوجة صاحب البيت أن تحضر لي ابنتها الجميلة «جيلا» ذات الأربع عشرة ربيعًا. آخ! جيلا! أنا سميتها «جيلا الشقية»، أحبها كثيرًا، هي ذاتها التي فكرتُ في السنة الماضية أن أذهب لخطبتها وأجعلها ضرة لغلوريا. لماذا استشطتم غضبًا؟ هذا ما يفعله التجار وأصحاب البطون المنتفخة. لماذا لا أفعل أنا؟ لكن هل تعلمون ماذا حدث؟ غضبت غلوريا

وخاصمتني. اسمعوا أيها الناس، اسمعوا إلى غدر المرأة! تخاصمت وأخذت طلاقها. حسنٌ أيها التعساء! لمَ لا أبقى حيًا مع كل هذه السعادة؟ الحجرة، الجو، الخبز، العمل، الأمل والكثير من الأشياء الأخرى. الضحك، نعم الضحك، أنظروا أنا أضحك. إذًا أنا حي أستطيع الضحك على المشكلات والمصاعب... أضحك حد... أضحك حتى أنفجر...

لكن لا تنفجروا، اضحكوا فقط. فجأة فقد وعيه وخرَّ مغشيًا عليه. هبّ الجميع مرتاعين وحيارى. وركض صوبه قبل الجميع عضوان من شركة الدخانيات. أخذ المُلَّا عباءته وعمامته (استلم مكافأته في السابق) وفرّ متخفيًا. تم تفريق الجمع بأقصى سرعة وحملوا السيد مستقيم على الفور إلى إحدى الغرف وهو في حالة إغماء وشحوب، واجتمع مع أصحاب البيت في الغرفة الطبيب الذي كانوا قد أخبروه وصحافي كان مارًّا بالجوار. أخذ الصحفي يوضح بحماسة:

- صدقوني أن مثل هذه الأخطاء تحصل كثيرًا، فعلى سبيل المثال في الأسبوع الماضي كتبت الجريدة «قورمه»19 عوض «قيمه»20. وقبل سنة نُشر هذا الخبر العادي: «أُدخل السيد رئيس الوزراء إلى المجلس»، على هذه الصورة: «دُخل بالسيد رئيس الوزراء في المجلس»، وأول أمس فقط كتبوا «عادم» عوض «آدم». لذلك فمن الطبيعي أن يخطئوا ويكتبوا السيد «مستقيم» عوض السيد «مستعين».

اندفع عضو شركة الدخانيات قائلًا:

- بالتأكيد إن شكّه تحول إلى يقين لمّا قرأ بعد اسمه «موظف سابق في شركة الدخانيات»، ولم يخمّن وجود شخص آخر يدعى «مستعين» عمل لسنوات في شركة الدخانيات ووافته المنية يوم أمس.

قال صاحب البيت:

- ومع ذلك، فإننا انتبهنا إلى الخطأ المطبعي وتم تصحيحه في الطبعة الثانية للجريدة بناء على طلب تقدمنا به هاتفيًا. لكن ماذا بوسعنا أن نفعل، إنها حادثة فظيعة، أعترف بذلك. واللحظة يجب أن نسأل الطبيب ما العمل...

لم يجب الطبيب لأنه سحب السيد مستقيم إلى ركن في الغرفة وانشغل بفحص نبضه وقلبه وكان القلق باديًا عليه.

اندفع الصحفي بحماسة أشد:

- الأمر بسيط، تكتبون سطرين وتخبرون الناس وتتأسفون لهم، وفي الأخير تؤكدون على أن السيد مستقيم ما زال على قيد الحياة.

جاء الطبيب ناحيتهم وقال:

- أنا كنت أعرفه في السابق.

- كيف حاله الآن؟ هل هناك خطر؟

- كلا بالتأكيد، لكن ليس واضحًا ماذا سيحدث لاحقًا، لا أعرف ما أقول.

قال الصحفي وهو يجهز آلة تصويره لأخذ صور للسيد مستقيم الذي ظل كما كان مسجّى في ركن:

- انشروا إعلانًا في الجريدة واكتبوا أنه حي.

قال صاحب البيت:

- أكيد، ضروري. هذا فقط ما بوسعنا أن نفعل، أليس كذلك دكتور؟

تراجع الطبيب من أمام عدسة الصحفي وأجاب:

- بلى، بلى، بالتأكيد. لكن يجب أيضًا معرفة رأيه هو.

16 - شركة عهد إليها سنة ١٩٢٩م بموجب قرار لمجلس الشورى الوطني الإيراني توفير أنواع الدخان والتوتون وتصدير وبيع وشراء المنتجات الدخانية.

17 - وحدة نقدية إيرانية، ألغيت وبقي اسمها يطلق على كل عشرة من الريال الحالي.

18 - أبيات من ديوان غزليات حافظ الشيرازي، الشاعر الإيراني الكبير (ت٧٩٢هـ).

19 - أكلة شعبية ومعروفة في إيران تحضر من اللحم المقدد والبقوليات والليمون العماني.

20 - أكلة شعبية ومعروفة في إيران تحضر من قطع اللحم الصغيرة والشحم والبطاطا المقلية.

الفصل 7

غلامحسين ساعدي (١٩٣٦-١٩٨٥م)

عُرف أيضًا باسم مستعار هو «گوهر مراد». كاتب مسرحي وقاص وطبيب إيراني. ولد سنة ١٩٣٦م بمدينة تبريز. درس الطب وحصل على درجة الدكتوراه، ثم تخصص في الطب النفسي.

خاض تجربة قصيرة في الكتابة الصحفية. جرّب، سجون الشاه واعتقل لمرات عديدة من قبل عناصر الأمن والمخابرات. وفي العام ١٩٧٩م سافر إلى أمريكا بدعوة من جمعية القلم. وبعد قيام الثورة الإيرانية أُجبر ساعدي على ترك إيران فاستقر به المقام في فرنسا.

كتب في شتى فروع الكتابة الأدبية مثل الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والسيناريو والترجمة. ويعد ساعدي من الأسماء اللامعة في مجال الأدب القصصي. توفى ساعدي في باريس ١٩٨٥م.

من أشهر أعماله القصصية والروائية أشير إلى: «سمرٌ بهيّ»، «أصحاب عزاء بيل»، «القبر والمهد»، «رعب بلا عنوان»، «الرهبة والرجفة»، «المقتل»، «الكرة»، «التاتاري الضاحك»، «غريب في المدينة»، وغيرها.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (مفتش)، وهي مأخوذة من مجموعة (شب نشينى با شكوه) [سمر بهيّ]، ص٨٣، منشورات أمير كبير ١٩٦٠م.

المفتش

في يوم الخميس جمع ناظر المدرسة الطلاّب في الساحة وطلب منهم الحضور يوم السبت بملابس نظيفة وجديدة، لأن المفتش سيزور المدرسة وكل شيء ينبغي أن يكون نظيفًا ومنظمًا. شاءت الأقدار أن يكون الجو خلال يوم السبت غائمًا ومكفهرًا. كانت الرياح تهب عاتية فاضطروا لإغلاق النوافذ، وكل لحظة وحين كان جرس المدرسة يرن من تلقاء نفسه. ارتدى الناظر معطفه المكوي وطوّق رقبته بشاله ذي اللون الجميل، وأخذ يتنقل، بخفّة، من ذي الحجرة إلى تلك، ويلقي نظرة على كل الأنحاء، ويتفحّص المدفآت التي أوقدت خصيصًا بمناسبة زيارة المفتش، ويتأكد من أن كل شيء على ما يرام. كان الأطفال سادرين في صمت مطبق وكأنهم يرتقبون وقوع حدث استثنائي. لم يكن للصف الرابع مدرّس، فأحضر الناظر من الصف السادس طالبًا سَمِقًا مربوع القامة وأوكل إليه حراسة الطلاّب.

كل شيء كان منظمًا ومنسّقًا، ولأن مدير المدرسة كان في إجازة، فقد كان الناظر يجتهد في ملأ فراغه أو إثبات وجوده هو. كان قد أمر بكنس الباحة، أما الأبواب والنوافذ فقد غدت تلمع. الشيء الوحيد الذي كان منغّصًا تلك الرياح العاتية التي كانت تؤزّ أغصان الأشجار وتنثر الأوراق الصفراء الماحلة في كل مكان ثم تفرشها فوق بساط ساحة المدرسة. انقضت الساعة الأولى في انتظار وترقب. وخلال جرس الفسحة، وبينما كان المدرسون مجتمعين في الصالة، خرج الناظر وقضى الوقت كله في صعود السلالم وهبوطها. ومع رنة جرس الحصة الثانية رجع المدرّسون إلى فصول الدرس حاملين كراريسهم في أيديهم، فجعل الناظر يفكر في المانع الذي قد يكون وراء تأخر المفتش عن الموعد المحدد. نادى البوّاب وأوصاه أن يربض في باب المدرسة بانتظار دخول شخص غريب فيسرع بإخباره. ثم قصد هو مكتبه.

كان عبارة عن حجرة صغيرة ذات كوتين، وبها أربعة كراس وطاولة. إحدى الكوتين كانت مليئة بعلب أوراق الامتحانات والأخرى مُكدَّس بها الرُّزْنَامَات ودفاتر السنوات الماضية وسجل كبير. وعلى الجدار عُلِّقت صور التلاميذ

المتفوقين في السنوات السابقة، كلهم ذابلو النّضارة ضامرون ويبدون وكأنهم مختنقون تحت وطأة الزّي الموحد. خلع الناظر معطفه وجلس إلى الطاولة من دون أن يفكّ الشال من على رقبته. فتح كتاب «التربية والتعليم»، الذي كان قد قرأه قبل سنوات في معهد تكوين المدرّسين، ووضعه على الطاولة ثم استغرق في التفكير.

بمحاذاة النافذة وُضعت مزهرية صغيرة نبت فيها ورد أصفر بأغصان طويلة ودقيقة وأوراق صغيرة ومدوّرة. كان زجاج النافذة منكسرًا تغزوه تشققات، وقد أُلص ورق على بعض أجزائه. ورغم كل هذا كان يتلألأ من شدة النظافة. ومع هبوب الرياح كان الورق يصدر خشخشة وتهتز الورود الصفراء وتحرك رؤوسها بفتور.

تثاءب ناظر المدرسة وظل محدقًا بالصور، فخطر على باله أنهم اجتمعوا كلهم في حجرة واحدة كي يلقي عليهم خطابًا. فتمتم قائلًا:

- كم تعبنا من أجل هؤلاء!

بعد ذلك تناول كتاب «التربية والتعليم» وألقى نظرة خاطفة على صورة بناية ثقافية، ثم انشغل بجمع الأوراق فوق الطاولة وترتيبها. إثر ذلك تذكّر كيف عليه أن يقدّم تقريرًا جامعًا مانعًا في حضور المفتش عن تاريخ المدرسة منذ القديم وحتى اليوم:

- لاحظوا سيدي أن الأسس الأولى لهذه المدرسة قد وضعت خلال الأيام المشرقة من العام ١٩٣٧م. ولا يخفى أن خلال تلك الفترة كان يجب بذل جهد مضن من أجل إقناع الناس بأهمية التربية والتعليم، أو بعبارة أخرى، لفت انتباههم إلى العمل الثقافي.

ومنذ ذلك التاريخ شهدت هذه البناية المقدسة تغييرات عديدة، لاحظوا أن هذه السلالم الآجرية قد أضيفت في وقت لاحق، أظن خلال شهر ديسمبر من

العام ١٩٤٦ أو ٤٧. وبعد ذلك الوقت انتبه المسؤولون إلى أن مرحاضيْن اثنين غير كافيين لثلاثمائة تلميذ، فتم، بأمر من المسؤولين السامين، بناء ستة مراحيض أخرى في آخر الساحة لتفادى ازدحام التلاميذ خلال فترات الاستراحة، والأهم من ذلك هو أن...

في هذه الأثناء رجّت الريح شيئًا وارتطم بالنافذة بشدة فهبّ الناظر واقفًا وتقدم مسرعًا؛ لم يكن يُرى في الساحة أحد، وحده البوّاب كان جالسًا في غرفته المحقّرة يدخّن سيجارة. كانت الورود الصفراء تحرك رؤوسها فاقدة أي رونق أو حياة. قال لنفسه:

- كل شيء يسير وفق النظام إلا الطبيعة فإنها عمياء ولا تخضع للقواعد القانونية دائمًا.

لكنه سرعان ما تسمّر وهو ينظر إلى الساعة:

- إذًا لمَ، لمَ يأت؟

أغارت الرياح وحملت معها إلى داخل الباحة أوراقًا ذابلة من شجرة السّنط المنتصبة في الشارع تحت مرأى هرة قابعة على الجدار، كانت تتابع سقوط الأوراق. قال الناظر:

- كلا، الطبيعة أيضًا منضبطة. أليس فصل الخريف خريفًا وفصل الربيع ربيعًا. إذًا كل شيء منضبط، إلا الإنسان، فلا ندري، مثلًا، متى سيطلّ علينا السيد المفتش بطلعته القذرة.

رجع وعاود الذهاب والمجيء، وانتبه مجددًا للصور حيث يرمقه الجميع بنظرة باهتة وتتفرّسه الوجوه الذاوية. خطر على باله أن:

- التربية والتعليم أمر معقّد. كم على المرء أن يعمل ويتعب كي ينتج طفلًا مطيعًا يسمع الكلام! فالبستاني يكد ويزرع الورود ويقتلع الحشائش الضارة

ويرميها كي تتفتح وردة جميلة آسرة وتصبح مستوية على سوقها مثل عروس لا تشبع روح الإنسان من التفرّج عليها.

كان ناظراه مصوبين نحو الورود صفراء اللون وكأنها أصيبت باليَرقان. كان المكان غارقًا في الصمت، وكان ينتابه إحساس بوجود شيء خانق ونجس. أمسك منديله وتفل فيه على مهل. تنفّس بهدوء وقال:

- إلى الدرك الأسفل من النار!

رجع، ومن جديد ارتدى معطفه ودلف من الباب. وهو يجتاز السلالم أبصر صور التلاميذ وعيونهم تبتدره، ورمق الورود الصفراء وهي تهزّ رؤوسها على عجل. دخل الساحة ثم توجه رأسًا إلى البوابة الخارجية. رآه البوّاب فاستوى واقفًا وأخمد سيجارته بين أصابعه. سأله الناظر:

- هل من خبر؟

- كلا سيدي.

- غريب! كان من المفروض أن يأتي في أول الصباح.

- لم يأت أحدٌ بعد.

- أتمنى ألا يتأخر أكثر.

- سيأتي إن شاء الله.

- أتعلم، إن قدوم المفتش مهم للغاية. أولًا لأن السيد المدير غير موجود، وسيدرك المسؤولون المحترمون أن الشؤون التربوية تسير بشكل طبيعي وبلا تعثر. ثانيًا لأن التلاميذ سينضبطون برؤية المفتش. ثالثًا بإمكاننا تقديم طلب لتزويد المدرسة بمصدر للماء.

- نعم سيدي.

- والأهم من كل ذلك أنه يجب أن يأتي كي يطّلع على جهود الآخرين. فيرى، على سبيل المثال، كم تشقى أنت وتكنس الساحة! وكم يزاول المدرّسون مهامهم التدريسية بوسواس ودقة! وبأي أمانة ومهارة أباشر أنا هذه المسؤولية!

- صحيح سيدي.

- في الواقع، المسؤولون يعرفون أن أموال الدولة لا تصرف هدرًا.

- وهل هذا ممكن سيدي؟!

- نعم لا يجب أن يكون. أنا حسبت حساب كل شيء منذ شهر. وفي الأسبوع الماضي كتبت رسالة وطلبت إرسال مفتش منصف. يعني مفتش عمل بجد طوال عمره ويعرف للخُدّام الحقيقيين قدرهم. وحددت اليوم موعدًا لهذه الزيارة، لكن لا خبر لحد الآن.

- نعم سيدي، لا خبر.

سعل الناظر وتراجع ثم دخل إلى الممر. كان ينحني خلف باب كل حجرة يصلها ويرهف السمع. لم يكن يصدر من الصف الأول أي صوت. في الصفّ الثالث كان المدرّس متحمسًا لإلقاء الدرس، فيما التلاميذ إما جالسون بصمت وهدوء أو يهزون رؤوسهم، جميعهم شاحبون مثل الورود الصفراء المصابة باليرقان. في هذه الآونة رنّ جرس الفسحة، فانصرف الناظر قاصدًا مكتبه، وفجأة شاهد البوّاب آتيًا صوبه بعجلة. سأله الناظر:

- ما الخبر؟ ماذا حدث؟

أجاب البوّاب وهو يجترّ أنفاسه:

- نعم، أظنه قد جاء.

- كيف عرفت؟

- لقد اصطحبته إلى مكتبكم.

استعجل الناظر وقطع السلالم ركضًا حتى أوصل نفسه إلى مكتبه. ألقى تحية طويلة وحارة وأحنى رأسه احترامًا. قام الرجل الشاب الذي كان يحمل في يده مظلة متهالكة وصافح الناظر، فجلس هذا الأخير إلى مكتبه وأغلق كتاب «التربية والتعليم»، ثم اندفع الوافد الجديد بصوت هادئ:

- أعذرني كثيرًا، سيدي الناظر، أردت قبل أن أعرِّفك نفسي أن أقول إنه بسبب مشغلة... أي شغل طارئ... لا، بل روتيني...

قاطعه الناظر:

- العفو... ليست هناك حاجة للتعريف... منذ الصباح، وأنا أترقب قدومكم... أكيد أنكم مطلعون جيدًا على مشاكلنا... التربية والتعليم عمل شاق. فمثلًا، كم يلزم البستاني من جهد وتعب حتى يتعهّد وردة، فلنقل مثلًا وردة صفراء، بالزرع والسقي والحفاظ عليها من هبوب الرياح وهطول المطر. حسنٌ فهذا الواجب ملقى على عاتقنا... في الحقيقة أنا من يجب أن أعتذر لأنني كنت أتفقّد الفصول أثناء تشريف حضرتكم، لأن السيد المدير غير موجود... ففي نهاية المطاف الأقرباء هم من يتحملون أعباء بعضهم... فرعاية براعم الوطن بتشذيب أظافرهم وارتداء الجديد من ملابسهم كانت واجبة سيدي، وقضية تشغيل المدفآت أيضًا ليست بالمسألة الهينة.

قال الوافد الجديد:

- نعم سيدي، ما تتفضلون به صحيح فأنا رأيت مدراء ونظّارًا لا يولون هذه المسائل أي عناية... والمحصّلة أن عملية التربية والتعليم... يطالها بعض...

الخلل...

استوى الناظر واقفًا واندفع قائلًا:

- اسمحوا لي الآن أن نقوم بجولة على مرافق المدرسة.

سلك الاثنان الردهة، فطرق الناظر باب الصفّ الثالث ثم فتحه. نهض المدرّس والتلاميذ، الذين كانوا بانتظار مثل هذه الطرقة، من أماكنهم. أشار الناظر بمنتهى الأدب والاحترام للوافد الجديد بالدخول، فدخل مترددًا. استأذن الناظر الوافد الجديد ليسمح للتلاميذ بالقعود. آنئذ تقدم المدرّس وقدّم شرحًا مختصرًا للدرس الذي هو بصدد إلقائه ثم عرّف الوارد الجديد بنخبة التلاميذ. أثناء انتقالهم من الصفّ الثالث إلى الصفّ الأول أوضح الناظر أنه أمر بتشغيل المدفآت بسبب موجة البرد المبكرة رغم أن الإدارة لم ترسل أي ميزانية، وذلك حتى لا يصاب أبناء الشعب، أي زهور بستان التربية والتعليم، بأي أذى.

توقف الوافد الجديد وسط الردهة وقال:

- إذا أذنتم فإني أود الذهاب إلى الصفّ الرابع.

- نعم، بالنسبة للصفّ الرابع يجب أن أخبركم أنه، ورغم مراسلاتنا المتكررة للإدارة، لم يتم إلى اليوم تعيين أي مُدرّس له.

قال الوافد الجديد:

- أعلم ذلك سيدي... ولهذا السبب تم تعييني كي أدرّس هذا الصفّ، وهذا كتاب التعيين.

حدّق الناظر للحظة في وجه الوافد الجديد:

- إذًا أنت لست مفتشًا؟

- كلا سيدي، أنا مدرّس الصفّ الرابع...

ثم أخرج الرسالة التي كانت بجيبه وأظهرها للناظر. تسلم هذا الأخير الرسالة بخجل وقال:

- تفضل إلى تلك الحجرة، تفضل وقدّم نفسك للطلاب.

طأطأ الوافد الجديد رأسه ثم توجّه إلى الصفّ الرابع، فقال الناظر لنفسه:

- إلى الدرك الأسفل من النار!

وسعل.

بعد مرور أسبوعين كان المدير لا يزال غائبًا، والطقس بات أكثر برودة وأشد ظلمة، وصارت الأشجار عارية تمامًا ولم تعد مكسوة بأي ورقة حتى تسقطها على باحة المدرسة. كان مدرّس الصفّ الرابع يأتي إلى المدرسة بشوق وحماسة. كان شخصًا مهذّبًا وخجولًا، يكنّ احترامًا كبيرًا للناظر الذي كان في مقابل ذلك يتحاشى لقاءه. في يوم الخميس زار الناظر صالة المدرّسين وخاطبهم:

- أيها السادة، سيزور مدرستنا يوم السبت مفتش رسمي، الرجاء إخطار التلاميذ كي يكونوا مرتبين ونظيفين.

وحين خرج الناظر من القاعة انفجر المدرّسون ضحكًا، بينما احمرّت وجنتا مدرس الصفّ الرابع.

الفصل 8

جمال مير صادقي (١٩٣٣ - ....)

كاتب وأديب إيراني كبير، ولد بطهران في العام ١٩٣٣م. تخرج من كلية الآداب بجامعة طهران في فرع الأدب الفارسي. شغل في حياته المهنية مناصب كثيرة وتحمل مسؤوليات عدة. أنتج في مساره الإبداعي الكثير من القصص القصيرة والطويلة والروايات، ترجمت بعضها إلى اللغات الألمانية والإنجليزية والأرمينية والإيطالية والروسية والعبرية والعربية والهندية والأردية وغيرها.

بدأ الكتابة في سن مبكرة. وخلّف أكثر من أربعين كتابًا في مجال القصة والرواية والدراسة الأدبية والنقد.

من أبرز آثاره الروائية: «طول الليل» (١٩٧٠م)، «مصباح الليل» (١٩٧٦م)، «الغربان والبشر» (١٩٨٩م). ومن مجاميعه القصصية أذكر: «هذه الناحية من تلال الرمال» (١٩٧٣م). «لا آدمي ولا صوت» (١٩٧٥م). «الخوف» (١٩٧٨م). ومن مؤلفاته في مجال الأدب الروائي الإيراني كتابي «الأدب القصصي» (١٩٨٠م) و«عناصر القصة» (١٩٨٥م).

عنوان القصة في الأصل الفارسي (تاپ تاپ)، وهي مأخوذة من مجموعة (هراس) [الخوف]، ص٢٥، منشورات تاريخ إيران ١٩٩٢م.

طق طق

كان الرجل الذي ضاق ذرعًا بالحرارة يتململ على كرسي وثير، وهو ينظر ساخطًا إلى صغيره. كان الطفل يجوب الفناء الصغير على دراجته ثلاثية

العجلات من هذا الركن إلى ذاك، وقد ملأ فضاء الساحة بالأصوات التي يصدرها من فمه وأزيز دراجته المهترئة.

كانت ليلة بهيمة؛ السماء منقبضة والجو قائظ وشديد الحرّ. كان الرجل يتصبب عرقًا وهو يغيّر وضعية جسده الممتلئ والمتراخي على الكرسي، وتتخبّطه أفكاره المشوّشة: «... اللعين، لقد خصم عشر ساعات من ساعات عملي الإضافية. سوف أريه... حين أرفض البقاء في الإدارة في المرة المقبلة... آنذاك سوف يدرك كم يُفتقد البدر في الليلة الظلماء... ».

رفع الرجل رأسه:

«كفى ضجيجًا أيها الولد، لقد صمَّت أذني».

أوقف الصبي الدراجة وحدج أباه بنظرة ثم عاد ليسوقها من جديد. كانت زوجته منشغلة بغسل الأواني في المطبخ. وأمام ضوضاء الأواني صاح الرجل هادرًا: «قطع الله دابر هذه الحياة، فبعد ثمان وتسع ساعات من العمل تقصد بيتك ممنيًا النفس بشم هواء جديد... يا امرأة كيف أدعو عليك؟! ألا يمكن أن تؤجلي غسل الأواني إلى غد؟».

من جديد، يرتفع ضجيج الدراجة الفلزية الواخز فيملأ فضاء الفناء. يندفع الرجل صارخًا: «ألم أقل لك أيها الصبي؟! يكفي هذا. اذهب وانخمد وكفّ عن هذا الضجيج».

صاحت زوجته من المطبخ:

«لمَ تصرخ هكذا؟ لا يمكنك أن تُرقد الطفل بالغصب. حينما يحس بالتعب سوف ينام من تلقاء نفسه. لا دخل لك به».

رفع الرجل عقيرته:

«أيتها المخلوقة! ألا يحق لهذا التعيس أن يتنفس الصعداء؟! اليوم بطوله لم ينقصوا منه شيئًا. هذا الصبي لا يهدأ دقيقة واحدة».

جاءت زوجته إلى الشرفة بيديها المبتلتين وقد شمّرت كُمَّيها: «ماذا أقول أنا التي ألازمه من الصباح إلى الغروب... ألا تتحمله لساعة أو ساعتين؟!».

تزحزح الرجل على كرسيه:

«عزيزتي، أنت لا تعملين في الإدارة، ولا علم لك كيف يمتصون دم الإنسان في هذه الساعات الثمانية أو التسعة، إنهم يجهزون على أعصاب المرء. بعد ذلك يبتهج قلبي للرجوع إلى... ».

قاطعته زوجته:

«طيب، الإدارة مرة أخرى؟ وهل أنا أقضي اليوم كله في الأكل والنوم وتسمين البدن، ما عساي أن أقول؟ من الصباح إلى الليل وأنا أشقى في هذا البيت اللّعين بلا جدوى ومن دون أن تسمع لي همسًا، وبعد ذلك تريدني أن أجبر خاطرك وأسلّيك. هل كل مرة تواجهني بالإدارة؟ أي إدارة تملك أنت... ها؟ وماذا تصنعون في هذه الإدارة؟ هل تصنعون جبالا؟ ها؟».

أجابها الرجل بصوت خفيض:

«عزيزتي، متى قلتُ إنك تسمّنين جسدك، لماذا تفترين عليّ؟ قلت حينما آتي إلى البيت أحتاج إلى الهدوء لأنال قسطًا من الراحة».

قلب الصبي بصراخه وصخبه الفناء رأسًا على عقب. التفت إليه الرجل وقال بهدوء: «بنيّ العزيز، ألا تفهم الكلام؟ لا تُخرج صخب هذه الخردة».

غير مكترث بأبيه، واصل الصبي الركض وإثارة الأزيز الهادر للدراجة الفلزية. يجتاز الشرفة ويرجع قافلًا وهو يصدر من فمه صوت «دي دي غي غي». هبّ

الرجل من مكانه صارخًا: «أنا أكلمك أيها الجدي. ألم أقل توقف؟ ألا تتعب من جرجرة هذه الملعونة هنا وهناك... ؟».

قالت زوجته:

«عزيزي سيروس، بابا تعبان، يكفي لعب ماما. تعال إلى النوم يا عزيز ماما، وغدا العب من جديد».

أوقف الصبي الدراجة وعلا صوته الباكي:

«لا أريد النوم، أريد اللعب».

قالت المرأة:

«إذًا لتلعب لعبة أخرى عزيزي، واترك ركوب الدراجة ليوم غد، اتفقنا؟... ».

رفع الصبي كتفيه إلى أعلى وأدار دراجته من جديد. صاح الرجل: «هل تريدني أن أنزل لأوسعك ضربًا، هيا انزل عن الدراجة وإلاّ... ».

هبطت المرأة من درجات الشرفة:

«يا عزيز ماما، أبوك تعبان، لا تثر أعصابه، كن ولدًا طيبًا، اتفقنا؟... ».

أنزلت الصبي من على الدراجة فانتابته غصة الحلق وانزوى في ركن من الفناء. عدّل الرجل موضعه على الكرسي ثم جفّف عرق وجهه بظهر ذراعه العاري: «اللعنة، إنها جهنّم. إنني أنضج!».

قالت المرأة:

«انهض واغسل وجهك كي تبرد قليلًا».

نهض الرجل من مكانه متثاقلًا وقصد الحمّام يجرجر قدميه. جعل رأسه تحت صنبور الماء وأخذ يهمهم: «قطع الله دابر هذه الحياة! تشقى ثمان وتسع ساعات كي تأتي إلى بيتك لأخذ قسط من الراحة، ثم... أوووف».

تجشأ:

«اللعين، لم يكن حساء بالشعرية بل حفنة فاصوليا مع عجين نيء، حتى إني لم أضف إليه الكثير من الرائب المجفف، كأنه قطعة من صخر لاصقة في أسفل بطني».

تجشأ ثانية. رجع إلى الشرفة متثاقلًا ومنهوكًا وبرأس ووجه مبتلين فهوى على الكرسي الوثير. أخذ الولد كرة وشرع يخبطها على الحائط ثم يلتقطها، وعلت من جديد جلبة أواني المطبخ. تراخت أجفان الرجل الثقيلة وأغمض عينيه.

«... قسمًا بالله لألقننّه درسًا. هذه المرة إذا قال ابقوا واشتغلوا، سأرد عليه أني لن أبقى سيدي الرئيس. سأقول له: سيدي الرئيس إن لدي واجبات أخرى، ويجب أن أهتم بزوجتي وأولادي. طق... اعذرني. كم للإنسان من روح، طق طق... وكم بمقدوره أن يعمل، طق... لو سقطتُ غدًا طريح الفراش، طق طق... فيجب أن أصرف أضعاف، طق... تعويضات الساعات الإضافية على الطبيب والدواء، طق طق... ».

ارتفع صراخه:

«لقد قتلتني أيها الصبي بطقطقاتك... لا تضرب هذه الملعونة بالجدار. لقد خرّبت جبس جميع الجدران. لمَ لا تذهب لتنخمد، إنه منتصف الليل! «عشرت»... «عشرت»، أستحلفك بالله، خذي هذا الولد وأرقديه، لقد هلكت... ».

جاءت المرأة إلى الشرفة:

«ما بك من جديد؟ لم كل هذا الصراخ؟ ماذا سيقول عنا الجيران؟».

رفع صوته عاليًا:

«جميعهم إلى الجحيم. لقد تعستُ وهلكت. لا أستطيع أن أرتاح في هذا البيت دقيقة واحدة. أيها المتعوس يا بن الحمار، ألست أكلمك؟! لا تخبط هذه الملعونة على الجدار... لا تضرب بالجدار... ».

هبّ واقفًا ونزل السلالم مغتاظًا:

«أعطني إياها يا سلالة الكلاب... هيا».

نزع الكرة من يد الصبي وطوّح بها إلى ركن. أمسك يده وجرّه وصاح عليه: «هيا إلى النوم يا بن الحرام، يا بن الكلب. إلى متى يجب أن أعاني بسببك؟! هيا».

علا صوت بكاء الطفل وصراخه فهبطت المرأة السلالم ركضًا وضجّت: «اتركه، لقد كسرت يد ابني، اتركه».

ارتفع صراخ الطفل وعويله أكثر فأكثر فأرخى الرجل يده. أجهش الطفل بالبكاء.

لوّحت المرأة بيديها مهددة:

«أيها العنيف، يا قاسي القلب، أيها الظالم... ».

أخذت الصبي في حضنها:

«يا عزيز ماما، لا تبك، أفديك بروحي. أبوك هو الشمر[21]».

ثم التفتت وصرخت عليه:

«لماذا تجلب مشاكلك إلى البيت؟ لماذا تفرغ على رؤوسنا عُقدك؟ لا تأت إلى البيت حينما تكون متوتر الأعصاب. لأجل ماذا تأتي يا رجل؟ كدت تقتل الولد. يا إلهي! هذا الرجل ليس في قلبه ذرة من الرحمة. لا تأت إلى البيت... لا تأت... ».

ردّ الرجل:

«ماذا دهاك، لمَ تصرخين؟ ماذا فعلت له؟ أمسكت بيده لآخذه إلى أعلى كي ينام. أنظر كيف ترفع صوتها. أصمتي أيتها المعتوهة!».

واست المرأة الصبي:

«لا تبك يا عزيز ماما، يكفي بكاء».

صاح عليها الرجل:

«خذيه إلى الغرفة. الجرو، كأنهم غرزوا في جسده سفودًا. عوعوعو. اكتم نفسك».

أخذت المرأة الطفل إلى الغرفة وصوت نحيبه ما يزال مرتفعًا. غاص الرجل في كرسيه من جديد وزمجر: «ما هذه الحياة! قطع الله دابرها. إلهي! هل ترضى أن يأتي المرء إلى بيته للراحة، يا لها من راحة... !».

كان صوت بكاء الطفل يخبو شيئًا فشيئًا.

«لا تقل طفل، بل قل زلزال، قل آفة. يا لسعادة من لم يرزقوا أطفالًا!».

جفّف عرق جبينه:

«عجبًا لهذا القيظ اللعين، كأنه جهنم، وما زلنا في أول الصيف».

جفّف عرقه مرة أخرى، سمع وقع أقدام زوجته وهي تذهب إلى المطبخ بهدوء. اغتمّت السماء دفعة واحدة وادلهمّ الجو. نظر الرجل إلى أغصان شجرة الجار وقد جمدت مكانها بلا حركة. زحزح جسمه الممتلئ على الكرسي. سمع مجددًا وقع أقدام زوجته وناداها بهدوء: «عشرت».

لم يسمع جوابًا.

«عشرت... عشرت هانم».

انطلق صوت زوجته من داخل الغرفة:

«بماذا تأمر».

«تعالي دقيقة».

أخرجت رأسها من الغرفة عبوسة.

«تعالي إلى هنا دقيقة، أحتاجك في أمر».

أدخلت رأسها وناداها الرجل من جديد بأناة:

«عشرت، تعالي أحتاجك في أمر».

جاءت زوجته إلى الشرفة:

«ماذا تريد مني؟».

«بالله عليك لا تقطبي هكذا، كأنك تريدين أكل الحنظل. أحضري كرسيًا واجلسي. قلب المرء ينقبض، كم بوسع الإنسان أن يتحمّل؟ ها».

ثم رقّ صوته:

«أريد أن أقول إنه ابني أيضًا كما هو ابنك. أيطاوعني قلبي أن تُمس شعرة من رأسه؟ ها؟».

«كدتَ تقتله!».

«أنا؟ أنا كدت أقتله؟ لمَ تقولين هذا الهراء؟ أنا فقط أمسكته من يده لآخذه إلى الغرفة العلوية كي ينام. أرأيت كيف أطلق عواءه الهستيري؟ ليس من المصلحة تربية الطفل مدللًا هكذا. قسمًا بالله لقد تمالكت نفسي كي لا أضربه».

«تمالكتَ نفسك... ؟! وماذا كنت تنوي فعله أكثر من ذلك؟ ليتك نظرت إلى نفسك في المرآة. اسودّ وجهك مثل المداد».

قال الرجل:

«كلا، لم يصل الأمر إلى هذا الحد، لقد انفعلت قليلًا. هذه الإدارة المخزية لا تبقي للإنسان أعصابًا. أنت لا تعلمين كم هي مقرفة! منذ أن تذهب في الصباح يجب أن تجيب على أسئلة المراجعين المستفزة. وتظل ملتصقًا بمكتبك حتى العصر. أحضري كرسيًا واجلسي، بروح أمك لا تقطبّي هكذا، لأن قلبي ينقبض».

أحضرت المرأة كرسيًا وجلست قبالته:

«ما دخل هذا الولد البريء بك؟ لقد كان يلعب ويلهو. أرأيت الضجة التي أقمتها؟».

جفّف الرجل عرق وجهه:

«لا تتحدثي عن الموضوع، ليس الإنسان مصنوعًا من الفولاذ، في لحظة واحدة يفقد السيطرة على نفسه. أتدرين يا عشرت؟ هذا اليوم أحضر أحمد

إلى الإدارة تلك الشربات التي أخبرتك أن امرأته تعدّها، سقى الجميع كأسًا منها. لا تدرين أي شربات كانت! قوية جدًا».

قالت المرأة:

«تحضيرها ليس صعبًا».

«كل الزملاء تحدثوا عنها، لقد أعجبتهم كثيرًا».

«سوف أعدها لك الآن لو أردت، لن يستغرق تحضيرها أكثر من نصف ساعة».

اندفع الرجل متحمسًا:

«تعدينها الآن؟ أتستطيعين؟».

«لمَ لا أستطيع، مثل شرب الماء».

استوت واقفة وقالت:

«هناك شرط، سوف تكون أفضل من الأخرى. أنا بدوري أخذت طريقة تحضيرها من فريدة».

انطلقت صوب المطبخ بخطوات كبيرة.

أزال الرجل قطرات العرق من وجهه وغاص ثانية في الكرسي ثم أرهف سمعه إلى الضوضاء الآتية من المطبخ وقد امتلأ قلبه رضا. أحس بحيوية، وتخيّل نسيمًا عليلًا يهبّ فيداعب وجهه. نظر إلى الشجرة في بيت جاره وكأن أغصانها كانت تتحرك. أغمض عينيه ومدّد رجليه: «... أقسم بروح ولدي الوحيد، الذي أحبه أكثر من نفسي، أني كنت قد قررت ألا أشتغل ساعات إضافية، لكن بما أنكم تأمرونني الآن، فسمعًا وطاعة سيدي... كلاّ، هو ليس

رجلًا سيء المعدن، لا يجب أن أخدعه معي بلا جدوى. تأخر سداد قسط السيارة شهرًا. عشرت تريد ملابس وحذاء وأنا أريد بذلة. اللعنة، كل ما يجنيه المرء من هذه الجهة ينفقه في الجهة الأخرى. تضاعف سعر كل شيء. إن أحمد على حق، كل ما يعطونه لنا يستخرجونه من حلاقمنا. لذلك يبقى المرء دائمًا بحاجة إليهم ويمدّ يده إليهم... ».

جفّف عرقه:

«سحقًا، ما لي أتفصد عرقًا. لا أطيق الحر أبدًا».

أفزعه صوت امرأته ورجّه من مكانه:

«هل انقضت نصف ساعة؟».

التفت الرجل ناحيتها، لقد فاجأته. تقدمت تحمل في يدها صينية ووضعتها على الطاولة: «تذوّق وانظر هل هي طيبة؟».

اعتدل الرجل على الكرسي:

«عجبًا، أعددتها بهذه السرعة، أحسنت!».

تناول من الصينية كأسًا من الشربات. كانت قطع الثلج عائمة على وجهه. حرّك بالملعقة ثم تذوّق رأس الملعقة. كان مذاقها مرًّا قليلًا. سألته: «كيف مذاقها؟».

«ممتازة. سلمت يداك عشرت هانم».

ارتشف جرعة وقال:

«كم هي لذيذة! لمَ لا تشربين أنت عزيزتي؟».

ملأت المرأة كأسًا آخر:

«لقد أعددت قدرًا وافرًا بحيث تأخذ معك غدًا قنينة إلى الإدارة».

ارتشف من فم الكأس، ونظر تحت ضوء المصباح إلى لون الشربات العسلي: «لو كان سيروس مستيقظًا لتناول من هذه الشربات، طفل معصوم... !».

حرّك الملعقة داخل الكأس وواصل:

«مسكين، بأي حال ذهب إلى النوم! عندما أتذكر ينفطر قلبي حسرة».

ثم علّ جرعة أخرى:

«نحن نجلس هنا نرتشف الشربات، وذاك المسكين يرقد بعينين باكيتين. ما أشدّ قسوة قلبك!».

وضع كأس الشربات على الطاولة:

«إنك لا تدرين على أي حالة غافله النوم... ».

انسابت قطرة دمع على وجهه:

«لا أستطيع أن أهنأ بالشربات وولدي المسكين... ».

شرب الرجل كأسه مصدرًا أصواتًا:

«هذا الأمر لا يدعو إلى التحسّر. أيقظيه كي يشرب شرباته ثم يعود للنوم».

اندفعت المرأة مغتبطة:

«إنك على حق. لا يجدر بطفلي المعصوم أن ينام بعينين باكيتين».

نهضت من على الكرسي وذهبت إلى الغرفة وعادت بالطفل النعسان. أجلسته على الكرسي وناولته كأسها المنتصف: «اشرب ماما، إنها شربات. أعدتها ماما لك. اشرب كي تنتعش أحشاؤك».

استوت واقفة:

«سأذهب لأكمل غسل باقي الأواني وأرتاح بالمرة».

شرب الولد جرعة وعبّس وجهه. وغير مشته وضع كأس الشربات على الطاولة. انحنى الرجل ومسّد على رأسه الصغير والدافئ وداعبه. كان الطفل يضرب رجليه بالطاولة ويتحرك على كرسيه إلى الأمام والخلف ويصدر من فمه أصواتًا. بعد ذلك نهض وذهب إلى الفناء وأحضر الكرة.

فتر الرجل وغاص في كرسيه من جديد:

«... تكلّم أيها الوقح، ألم تخجل مني؟ من الذي قرأ مائة ملف في شهر وأعدّ التقرير؟ طق... من الذي يواجه المراجعين المزعجين ويتخلّص منهم بشكل من الأشكال؟ طق طق... أحمد كل مرة يتهرّب من العمل، طق... ومع ذلك لم يخصموا من ساعاته الإضافية، طق طق... أنا في بعض الأحيان أظل إلى الساعة السادسة والسابعة أحضّر ملخص الملفات، طق... المخادع، بالله إنك لمخادع، طق طق... تكلّم أيها الحقير المتملّق، طق... أنت الشخص ذاته الذي كنت حتى السنة الماضية، حين لم تكن قد وصلت إلى منصب الرئيس، طق طق... كنت تلحس مؤخراتنا جميعًا، طق... يا بن الكلب، يا عديم الحياء، طق طق... يا عديم الشرف، أيها الدنيء، طق، آخ، طق طق... »

ضجّ الرجل صارخًا.

21 - هو شمر بن ذي الجوشن، كان ممن بايع علي بن أبي طالب وشارك في صفين إلى جانبه لكنه تمرد عليه في فتنة الخوارج. وبعد ذلك شارك في قتل

الحسين بن علي رضي الله عنهما.

الفصل 9

أحمـــد محمـود (١٩٣٢-٢٠٠٢م)

اسمه الحقيقي أحمد عطا، واسمه الأدبي أحمد محمود، من مواليد مدينة الأهواز في العام ١٩٣٢م.

أولى أعماله القصصية رأت النور على صفحات الجرائد. في العام ١٩٥٧م أصدر مجموعته القصصية «مول»، ثم بعد ثلاث سنوات مجموعة «البحر ما يزال هادئًا»، وفي العام ١٩٦٢م نشر مجموعته القصصية الثالثة تحت عنوان «العبث». مجموعته الرابعة التي حملت عنوان «زائر تحت المطر» تشير إلى التحول الذي طرأ على حياته الفنية.

لكن أشهر أعماله التي أوصلته إلى الشهرة ولاقت إقبالًا منقطع النظير هي روايته «الجيران»، وقد ترجمت إلى اللغة العربية. بعد هذه الرواية أصدر أحمد محمود رواية أخرى تحت عنوان «قصة مدينة». وفي العام ١٩٨٢م سيصدر أول رواية له في موضوع الحرب الإيرانية العراقية بعنوان «الأرض المحروقة». وبعد ذلك سينشر مجموعتين قصصيتين أخريين: «اللقاء» و«قصة معروفة» على التوالي سنتي ١٩٩٠م و١٩٩١م.

من الآثار المهمة التي تركها أحمد محمود رواية «مدار الصفر درجة» في ثلاثة أجزاء. وآخر رواية أصدرها في العام ٢٠٠٠م تحمل عنوان «شجرة تين المعابد».

توفي أحمد محمود في طهران سنة ٢٠٠٢م.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (شهر کوچک ما)، وهي مأخوذة من مجموعة (پسرک بومی) [الصبي البلدي]، ص٦، منشورات أمير كبير ١٩٧٤م.

مدينتنا الصغيرة

ذات يوم من أيام فصل الصيف الحارة جاؤوا وانهالوا بالقطع على أشجار النخيل السامقة.

مع إشراقة الشمس خرجنا من البيوت وجلسنا نشاهدهم مستظلين بظلال الأسوار الطينية. كلما اجتُثَّ عمود نخلة طويلة بأوراق ذات رؤوس مسنّنة متداخلة ومغبرّة، واخترق الفضاء وهوى على الأرض محدثًا خشخشة عظيمة، كنا نصيح «هووو» ثم نطلق سيقاننا للريح، وإلى أن يرقد غبار الأغصان والأوراق كنا ننهب البلح الأخضر النيئ وفراخ العصافير المرتعشة التي تحطمت أعشاشها. بعدما أعدنا الكرَّة مرات ومرات، نزع رئيس العمال قبعته القشية وطاردنا بقضيب في يده. وهكذا جلسنا بجانب الكبار في ظلال الأسوار نعصر الفراخ المرتعشة بقبضتنا ونتأمل بحسرة محو ظلال حقل النخيل من خلف بيتنا وشحن جذوع النخل. أثناء الغروب، غدا المكان الطيني، خلف جدار بيوتنا، وإلى حدود الرمال القاتمة والرطبة على ساحل النهر، خلاء شاسعًا مفتوحًا يغري بشنّ الغارات. كنت أتوق إلى أن أذهب وأفكّ لجام فرس الشيخ شعيب من الآخية التي رُبط فيها منذ ليلة أمس وأركبه مكتسحًا لغاية حافة النهر.

كانوا مئة أو مئة وخمسين نفرًا، جاؤوا في الصباح الباكر حاملين العتلات الكبيرة. وما أن حلّ وقت الأصيل حتى غدا المكان خلف بيوتنا وكأنه لم يكن حقل نخل قط.

في الليل، جاءت «آفاق» متصببة عرقًا. نزعت وشاح رأسها وأسدلت على كتفيها شعرها الأسود البرّاق.

كان خواج توفيق جالسًا إلى بساط الأفيون. عند الغروب، وجريًا على العادة، كان قد رشّ الماء على أرضية الفناء وفرش حصيرًا وألقى فوقه سجّادًا عربيًا ثم جلس بجنب المِجْمَر وانشغل بالنفخ في جمرات فحم شبه مشتعلة، بينما كانت «بانو»، الفتاة الشاحبة التي تعلو وجهها بثور الجدري، جالسة بجانب أبيها وقد سوّدها الدخان.

كان فرس الشيخ شعيب مربوطًا إلى الآخية منذ ليلة أمس وكان ما يزال في غفوة.

حينما جاءت آفاق كانت أمي قد أوقدت اللمبة للتو. خلعت عباءتها ووشاحها ورمتهما على السجّاد ثم دخلت إلى الغرفة وأخرجت من تحت تنورتها الفضفاضة قطعتي ساتان زهري. كانت زوجة «الرائد» قد أوصت بقطعتي ساتان زهري، ومع انبلاج الصبح انطلقت آفاق ورجعت الآن بالقماش بعد أن تركت خواج توفيق يترقّب.

خرجت آفاق من الغرفة شبه المظلمة وأحضرت معها اللمبات فأوقدتها ووضعتها بجانب السجّاد، وتناولت الكوز وعبّته في نَفَس واحد، ثم قالت وأنفاسها تتسارع: «أذلّهم الله!». جلست وجفّفت عرق جبينها بقطعة ثوب خَلِقة ومنتنة ثم سألت: «ألم يأت الأولاد؟»

كان خواج توفيق بانتظار الأولاد. لمّا جاؤوا، كان الإسمنت قد أتلف أصابع «يد الله»، أما يدا «فتح الله» فطليتا بمسحوق الجبس الأبيض إلى المرفقين، وكنت أنا جالسًا بجنب أمي أزدرد حلوى الطحين حين نادى عليّ خواج توفيق وطلب مني أن أذهب لأشتري له الحشيش من متجر الشركة.

لمّا خرجت من البيت كانت الضفة الأخرى من النهر بارزة تسطع سوادًا من كثافة النخيل، وكان نور القمر يبدو منكسرًا في النهر، وأعمدة النخل المكدّسة في الخلاء المجاور لبيوتنا قد تم نقلها. وفي اليوم الموالي جاءت

سبع عشرة عربة مع العُمّال وقاموا بشحنها. بعد ذلك، استغرق رصّ الخلاء بالحصى والرمل ورشه بالنفط أسبوعًا كاملًا. كان النفط الخام يلمع تحت أشعة الشمس الحارة فيتبخّر.

انتشرت رائحة النفط في كل الأماكن، وأرسلت زوجة الرائد من يحضر لها قماش الساتان الزهري. كانت آفاق تخرج في الصباح وتعود في الظهيرة تارة، وتارة لا تعود. وعند مخايل الغروب كان خواج توفيق ينتظر عودة يد الله وفتح الله من عملهما كي يرسلني إلى متجر الشركة.

والآن امتص الرمل والحصى النفط وتيبّست الأرض. ومع هبوب الرياح كان تراب الخلاء الأصفر يرتفع عاليًا وينتشر، فيتجمّع تراب بنّي اللون عند الجدران والأسوار الطينية. وأثناء المدّ يغمر الماء أغصان النخيل فيصير سطح الماء بنفسجيًا وأصفر وأحمر و... كأنه قوس قزح.

كنت مقرفصًا على سطح بيت الحمَام حينما انحشر الشيخ شعيب من بين دفتي باب البيت العاريتين، ولمّا تقدم أكثر امتزج ضوء اللمبة الأصفر ببشرة وجهه المحروقة فانعكس شكل أنفه وجبينه وخديه. دق الحصان سنابكه على الأرض وأرعد منخريه وحرّك ذيله، فسحب خواج توفيق آخر نفس من الغليون22. وقد كان بمعية زوجته حين «أحضرا من البصرة خمسة رؤوس للغليون من طراز ناصر الدين شاه23... ». وكانت آفاق متربعة على ركبتيها تصغي إلى الزوج وأبي معقوفًا على كتاب الأنوار24، فانطلق صوت الشيخ شعيب طامسًا شفافية سواد الليل:

- كنت أعلم أن النهاية ستكون هكذا.

وفعلًا صار الوضع كذلك، ولم يعد عطر النخيل القابض يختلط برائحة الريح الشرقية. بل انتصبت في كبد السماء سوارٍ فولاذية طويلة كانت تنكسر على السور الطيني لبيتنا فتسقط في الباحة الفسيحة وتنزلق لتصل إلى خندق

البيت الذي تزيّن بغطاء مخملي من الكلأ والأعلاف. وفي الخلاء خلف بيتنا تداخلت الأصوات وامتزج لون ملابس العمال الأزرق اللاَّزوردي باللون الأبيض للصناديق الخشبية الكبيرة التي كانت تتلاشى تحت مفكات المسامير والقضبان الحديدية. وفي الأعلى، كانت تسترعي انتباهك أسلاك فلزية مفتولة وتحبس الدمع في آماقك وكأن مِرْوَد المكحلة البارد قد غُرز في عينك.

في الليل، كان الوالد يقرأ كتاب الأنوار وأحيانًا كتاب أسرار قاسمي25 بينما خواج توفيق يتحدث؛ عن الشيخ خزعل وعبد الحميد وغلمانهما والسود الذين يمسكون الخيزران في أيديهم. كان يقول: كنا في الليل نلعب في زقاق «ترنا» ونركض وسط حقول النخيل، وكنا نقفز فوق الأغصان في عرض الماء ونسوقها إلى حافة النهر ثم نجلس في تجاويف بالقرب من النهر ونرهف السمع إلى أصوات الماء ووقع أقدام الشباب الذين كانوا يصيحون وهم يبحثون عنا. وفي تلك الليلة، بينما كنت جالسًا في مرسى الزورق ملصقًا أذني بالأرض سمعت، فجأة، وقع أقدام وأصوات همهمة. لم يكن وقع أقدام الشباب ولا همهمتهم. كان كلامًا هادئًا ينساب في ظلام رطب ويصل إلى الآذان. من بين كل الأصوات استطعت تمييز صوت آفاق.

كان الوقت ليلًا، ليلًا بهيمًا. أصوات أمواج النهر الهادرة تختلط بأزيز الريح التي ثارت على أوراق أشجار التمر الكثيفة.

تسللتُ من المرسى وصعدت أعلى وتزحلقت على الرمال الرطبة، وجعلت مرفقيّ عمودين أسندت خديّ على راحة يدي.

شقّت نظراتي عتمة الليل. على امتداد كل غصن كبير ينفصل عن النهر كانت تتراءى ظلال متموجة. كان الماء مرتفعًا وفي حركة مد، وكان بمقدور الزورق أن ينساب من النهر إلى الأغصان ويتقدم حتى عمق النخيل.

نهضتُ وركضت فاختنق صوت قدميّ السمينتين فوق الرمال.

ألصقتُ صدري بقشر خشن لنخل منقعر وجذوع أخرى كانت في طريقي. كانت الحركة تقطع تتابع نظراتي. بتُّ الآن أسمع جيدًا وأرى آفاق بصورة واضحة، مرتدية قميصًا حريريًا أسود ملتصقًا بقالب جسدها، وحينما كانت تسير كانت أردافها تهتز، أسدلت شعرها على كتفها، وكان صوت الشيخ شعيب يُسمع: «مئة واثنتان وعشرون قطعة قماش... ». حبست أنفاسي وكانت شفتاي محمومتين. مكثتُ حتى ذهبت آفاق وذهب الشيخ شعيب، ثم نطّ الرجل، الذي كان بقامة عمود نخلة طويلة، إلى الزورق وساقه نحو النهر. ليلتها أدركت لمَ تتأخر آفاق في بعض الليالي، ولمَ لا تأتي في بعض الأحيان، وفهمت لمَ يربض باستمرار المفتش نور محمد بعينيه الصغيرتين وفطيسته الطويلة التي تشبه فطيسة الثعلب، حوالي بيتنا ويشم الروائح مثل قط جائع. غداة ذلك اليوم داهم بيتنا المفتشون وثقبوا كل الأمكنة بسفافيد حديدية حادة ولم يعثروا على شيء. كانت آفاق قد أخلت البيت ليلًا ونقلت البضاعة إلى مكان آخر. لذلك اقتادوها وظهرًا أطلقوا سراحها، فرجعت بشفتين متيبستين متشققتين وجسد غارق في العرق، تلعن وتزمجر وتنتحب.

والآن جاؤوا يحملون عتلات ثقيلة وانهالوا على حقل النخيل خلف جدران بيوتنا الطينية لدرجة بات المكان، وإلى حدود رمل النهر الرطب والغامق، فضاءً يغري بشنّ الغارات.

كانوا قد ملئوا الجداول بالماء، وصارت بمثابة مخالب طويلة للنهر نَشِبت في شَعر حقل النخيل. وعند الظهيرة، كانت ظلال الأعمدة الفولاذية تنكسر على جدار بيتنا الطيني وتسقط في الفناء ثم تنزلق حتى حافة خندق البيت الذي سُحق، في ذلك اليوم، بساط أعلافه المخملي تحت أقدام المفتشين. سحب خواج توفيق آخر جرعة من الغليون، وقد كان برفقة زوجته حينما «أحضرا خمسة رؤوس للغليون من البصرة... «، وكانت آفاق منطوية على ذاتها بينما نظراتها مصوبة على بساط الورد الأحمر وأذنها على خواج توفيق. أما بانو فقد كانت في غفوة ويد الله كان يفلق البصل بمرفقه. اندفعت آفاق:

- أذلهم الله...! لم يعد لنا ملاذ ولا ملجأ... !

لقد قطعوا النخيل وملئوا الجذوع فغدا الظلام ثقيلًا وطبقة الرماد تقطع أنفاس بساط الورد الأحمر.

كنّا نطير من النوم فزعًا على وقع دويّ المرافيع وسبع عشرة عربة، ومع إشراقة الشمس الأولى نخرج للجلوس مستظلين بالجدار ونأخذ بالتفرج على العمّال زرق الملابس بخوذات حديدية بيضاء تعكس أشعة الشمس، والذين كانوا يتململون فوق الأخشاب الأفقية والعمودية. ومع تمدد الشمس كانت تتبدد برودة الصباح. بات الآن يفصلنا عن النهر الجدارُ الآجري الأحمر، وأطل برأسه قرح الميدان النفطي الأصفر من خلف بيوتنا وتسلل إلى الأزقة، وزحف من أطراف حقول النخيل البعيدة أنبوبان بلون القير، كأنهما زوج ثعبان، ووصلا حتى الخلاء، وانتصبت القواعد الخشبية المدهونة بالنفط كما تنتصب المشانق وتتحرك في الشوارع الكبيرة بمدينتنا الصغيرة. وأخذت طيور النهر ترتعش فوق الأسلاك. ومع هبوب العاصفة كانت دوامات التراب الأصفر تتراشق في الهواء وتسقط على وجوهنا ورؤوسنا. وظُهر ذات يوم خريفي، وقبل أن ينهوا وضع أساسات المخزن الخامس، جاؤوا وطلبوا من الجميع ألا يبرحوا مقهى الشط إلى حين العصر. وليلًا رجع أبي من المقهى مبرطمًا وقال لخواج توفيق بعد أن سأله ما الأمر: «إنهم يريدون هدم المنازل... يقولون إن الإدارة تحتاج إلى المزيد من الأراضي... ». خُيِّل إليّ أن الخلاء جائع وقد فتح فاه النفطي كي يبتلع كل شبر من المدينة. ليلتها لم يقرأ أبي لا كتاب الأنوار ولا أسرار قاسمي. أخرجت أمي من صندوق الملابس سترتي الصوفية وجلست قرب اللمبة وأخذت ترتّقها لأن الخريف كان قد حلّ وهبوب الرياح كان مؤذيًا، وأزيز النخل البعيد وهدير النهر الذي لوثته السيول الخريفية لا يهدآن. النهر الذي فصلنا عنه جدار الآجر الأحمر والمخازن الرمادية والأعمدة والأسلاك الشائكة والظُّلل ذات الألوان المختلفة.

جاؤوا واقتادوا «نوروز» إلى دائرة الأمن لأنه أمسك مقبض الهاون وانهال عليهم حينما جاؤوا يأخذون قياسات منازلنا. لما قُبض على نوروز بُهت الجميع. أخرج موسى سرميداني المدية من حزامه ورماها في مخزن البيت. كنت قد ترددت على مقهى الشط مرات عديدة رفقة أبي، وذات مرة سمعت موسى يصيح ويتوعد: «كلُّ من سوّلت له نفسه النظر إلى بيوتنا فستكون هذه المدية صكّه». وكانت عيناه تبرقان وهو يعصر قبضة المدية في يده ويفتل شاربه، ثم استند إلى أريكة وارتشف قنينة مشروب غازي. والآن ها هو يرمي المدية في مخزن البيت وينكس رأسه في المقهى التي لم تكن الشمس تزورها.

اصطبغت جميع شوارع مدينتنا الصغيرة بلون النفط. وحيثما ولّيتَ وجهك ترى آثار إطارات السيارة المطاطية مرتسمة فوق التراب الذي امتزج بالنفط وترسَّب. وصباحًا كنا نستيقظ على دويّ صفارات المعامل الصاخبة. أما الصفارات الثانية فكانت تشق سكون الفضاء فيندفع العمال زرق الملابس بخوذاتهم الفلزية حاملين قدور الطعام في شارعنا يقصدون الإدارة. وغدت ظلال النخيل المتبقية أمام مقهى الشط سوقًا رائجة، وامتلأ الفضاء بالروائح العطنة للسمك الحي والرائحة النفّاذة للسمك المشوي المتبّل ورائحة الخبز المنزلي المقبولة ورائحة أسيد اللبن المخثّر، وما فَضَل من مرق اللحم وقلوب وكُلْيَات البقر والخضروات الذابلة.

تم مدّ أسلاك الكهرباء في المدينة بأكملها وإيصال التيار إلى كل البيوت. لكن خواج توفيق ما يزال يقرفص أمام اللمبة بانتظار عودة يد الله وفتح الله من عملهما كي يرسلني إلى متجر الشركة.

لم يكن مصير بيوتنا قد تقرّر بعد. كانوا قد جاؤوا وأخذوا المقاسات وقالوا إنه يجب إفراغ المنازل في فصل الشتاء. لذلك لم يعد أبي يتحمّل وصار خواج توفيق، بعد تدخين الحشيش، عوض أن يحكي عن ذكرياته البعيدة والطويلة يغفو. وآفاق التي فقدت ملاذها في حقل النخيل جلست في البيت. كان ذلك إلى حدود تلك الليلة التي فاحت منها رائحة الشتاء وكان باب بيتنا القديمة

المكسورة تئن وتنخلع دفتاها، إلى أن توغّل الشيخ شعيب بحصانه داخل البيت و...

... بعد ذلك أحكمت آفاق حزم خصرها بالشادور وجمعت شعرها الرطب الأسود في وشاحها الصغير ثم خرجت من البيت برفقة الشيخ شعيب. وما هي إلا لحظات حتى جاء «يد الله رومزي» في طلب أبي وخواج توفيق. أخذتُ الفانوس وانطلقت في إثرهم. على باب مقهى الشط عُلق مصباح قوي الإضاءة دبّ ضياؤه فوق صفائح القصدير المتموجة لسياج مخزن الإدارة، وهو يمشي خلفي، كان يد الله رومزي يمرر أصبعه الطويل على طيّات القصدير فتحدث صوتًا شبيهًا بصوت رشّاش صامت في جوف الليل ويمتزج بصوت النهر المبهم.

لمّا اجتزنا المقهى في العتمة ووسط نباح الكلاب قابلتنا نخلات يتيمات ينزلق فوق جذوعها ضوء الفانوس فتسقط على الأرض ظلالها المشدوهة. ونحن نسير تدور ظلالنا حول جذوع النخلات، بينما تهبُّ ريح لطيفة فتتلاعب بفروع النخلات ويختلط عطرها برائحة النفط. قفزنا فوق جدول الماء فرأينا منزل «ناصر دواني». كان الجميع حاضرًا بمن فيهم سرميداني بعينيه الشريرتين المتوحشتين. جلست قرب الأحذية والبوط، وحين كانت الريح تنفذ من شقوق الباب تحمل معها صقيع الشتاء.

جلس أبي في الأعلى واتكأ على الفُرُش المُغلَّفة بخيمة الليل وإلى جانبه خواج توفيق. أحضروا شاي الحليب فصارت شفتاي دبقتين بدهون الحليب ودغدغت سخونته حلقومي.

كان أبي يدخن لفيفة تبغ وسرميداني سيجارة عراقية وكان السكوت سيد الموقف وصوت نارجيلة «فتحعليشاه» ورائحة تبغ «خوانسار». بعد ذلك اندفع سرميداني:

- أعلم أن الجميع يغتابني، لكني أريد أن أعرف من قدّم يد المساعدة لنوروز حينما اقتادوه إلى دائرة الأمن؟

لمّا قبضوا على نوروز انتاب الجميع الدهشة ولم يجرؤ أحد على أن ينبس بكلمة، فأدرك موسى أنه عاجز عن القيام بأي شيء.

- لو أنكم دافعتم عنه، أو على الأقل أحدثتم ضجة، لتجلّد قلبي. وعلى حد قولك، لم أكن لأغمد مديتي. وكنتَ سترى كيف سأهاجم ذلك الخواجة الطويل وأجعل منه شوربة مثل لحم الأضحى.

صاح أبي بصوته الهادر الذي زلزل الحجرة الممتلئة:

- موسى معه حق... موسى...

قاطع كلامه يد الله رومزي:

- وقتها لم نكن نظن أن الموضوع جد.

تكلم ناصر دواني:

- المرض يتسلل شيئًا فشيئًا... لا يصاب الجميع بالوباء فجأة..

بعد ذلك تداخل كلام القوم وكانت نظراتي تنتقل من هذا الفم إلى ذاك. ثم لم أعرف ما الذي جرى حتى هبّ موسى سرميداني من مكانه وصرخ ثم أخرج من جيب صدرته مصحفًا صغيرًا، واهتزّ سقف الحجرة على صوته المجلجل مثل أفعى جريحة:

- لو كنتم رجالًا أقسموا بقرآن محمد هذا... هيا أقسموا...

ثم ضرب بيده على المصحف.

- أنا سأسبق الجميع... وبهذه المدية...

ثم أزاح مقدمة سترته واستلّ مديته من الحزام.

- قبل أي أحد سوف أذبح ذلك الخواجة من الوريد إلى الوريد... إلى أين أذهب كي أعيش؟... دفعت دم عروقي ثمنًا كي أبني هذه الحيطان الأربعة... هيا أقسموا... احلفوا.

نطق «عبدي» المُجصِّص، بصوته الرخيم وكأنه قطعة ثلج دُست في قدر ماء مغلي:

- لا يحتاج الأمر إلى أداء اليمين!

وعلّق عبدي شيربرنجي:

- أداء اليمين يستوجب الكفّارة.

تسلّل اليأس إلى موسى وبينما جلس على ركبتيه كما تجلس الهرة على مخالبها استشاط غضبًا، وانقطع صوته وحرنت الكلمات في حنجرته. بعد ذلك انبعث صوته كالرصاص:

- أرأيتم أن موسى ليس رعديدًا أرأيتم أني لست رعديدًا... ؟

تراجع القهقرى واتكأ على مخدة مغمغمًا.

غدا ممتقع اللون من منبت الأذن إلى الجبين.

ارتعشت شفتاه تحت شاربه الكث وبدا كمن يسبّ نفسه أو يردد وردًا أو كمن أصيب شدقه باللَّقْوَة. خيّم صمت مطبق على الحجرة وكأن الجميع قد ماتوا. في الخارج استبد أزيز الريح ورائحة الليل. فتل أبي لفيفة تبغ أخرى وقطع عقبها بطرف أسنانه وتفل ثم أطلق العنان لخشخشة صوته:

- اجتمعتم، أربعون رجلًا، بشواربكم ولحاكم، فما أنتم فاعلون؟ لمَ أرسلتم في طلبنا؟

اندفع خواج توفيق:

- موسى على حق.

وقال يد الله رومزي:

- يجب أن يكون الجميع على قلب رجل واحد.

ثم جاء دور ناصر دواني ليقول:

- يجب أن نؤدي اليمين.

تكلّم موسى سرميداني، ولكن هذه المرة بصوت مختنق:

- لماذا إذًا حينما أخرجت المصحف ابتلعتم ألسنتكم؟

خرج أبي عن سكوته:

- أما عنّي أنا فمستعد أن أذهب إلى أبعد الحدود.

- لنقسم إذًا.

- جميعنا سنقسم.

فامتلأ كياني كله بالقَسَم. لو كانوا خرّبوا منازلنا، لو دُمِّر بيت حمامي؟ كلا..!

«بيضاء الذيل» وضعت بيضها منذ يومين، وزوج الـ«حبشي» يسحب الألياف وسيقان النبات، وذَكَر الـ«خاني» كان ينقر البيضة. كنت أفكر في الحمام

وبيت الحمام فاستحضرت الكلام الذي قيل: «عندما يقررون المجيء لهدم بيوتنا سوف لن يذهب أحدنا إلى عمله... وسنعتصم بالبيوت...».

و...

- سنقاتلهم بالعتلات.

- كلّ من سوّلت له نفسه أن يقترب منا سأسمل عينه بهذه المدية.

تداخلت الأصوات وكانت شفتاي دبقتين بفعل دهون الحليب، وكان الليل ورائحة الأبخرة المحترقة والصقيع اللاّذع الذي يتسلل من بين شقوق الباب. فجأة سُمع صوت رصاصة وثانية وثالثة فأصابنا الهلع وهجمنا على باب الحجرة وخرجنا إلى الفناء ثم ركضنا صوب باب البيت.

روَّض ناصر دواني الجاموسة التي كانت موثقة تحت الظلّة وساقها ثم أطلق صرخة...

كان القمر قد ارتفع عاليًا واستتب وكان يسمع صوت ديك يشي بأنه ضلّ الطريق، والليل كان قد تجاوز منتصفه ويسير نحو الإصباح.

مع طلوع الشمس وانحسار برد الصباح جاء الديك والتقط الحب كله، واحدة تلو الأخرى.

لم يُعرف من ابن الحلال الذي ذهب وقدم وشاية؛ قبضوا على أبي، وحين ألقوا القبض على خواج توفيق ركضت أمي قاصدة منزل يد الله رومزي، أما آفاق فلم ترجع منذ أن ذهبت ليلًا.

يد الله رومزي هو الآخر اقتيد إلى دائرة الأمن كما أبي وخواج توفيق وناصر دواني وباباخان... وقبل الظهيرة جاء نور محمد بفطيسته الرقيقة وعينيه

الصغيرتين وكانت أمي تصغي إليه ودموعها تهمي على خديها:

- يا أخت! أخبري خواج توفيق، وإذا لم يكن موجودًا، أخبري أولاده كي يأتوا لاستلام جثة آفاق.

- جثة آفاق؟

- أجل أختاه. أصيبت ليلة أمس بطلق ناري حوالي حقل النخيل.

أطلقت بانو، التي كانت تغفو، صرخة وصاحت أمي صيحة شديدة فرّ على إثرها نور محمد كالثعلب.

لم تمهل الفرصة خواج توفيق كي يأخذ دخانه في الصباح، ومن المؤكد أنه الآن يداري الصداع ووجع الرأس في دائرة الأمن.

ذهبت لأتفقد حمائمي؛ اختلطت روائح مخلفات الحمام برائحة الرطوبة. كان بيت الحمام دافئًا فنامت أنثى «الحبشي»، لابد أنها أباضت. ضربتُ ريشها برأس خشبة صغيرة حتى تتنحى جانبًا وأرى إن كانت وضعت بيضًا. مطّت الحمامة جناحها ومدّت رقبتها وانتفخت ثم هاجمت الخشبة بمنقارها القصير.

سمعت وقع الحذاء الخشبي لزوجة ناصر دواني. أبصرتُ من وراء باب بيت الحمام ساقيها الأسمرين الغامقين. أكيد أنها كانت تشدّ خصرها بشادورها. كانت حفرة خلف ركبتيها تمتلئ وتفرغ وصوت حذائها الخشبي يعلو. رأيت من خلف باب بيت الحمام ساقيها الغامقين يفتحان ويغلقان مثل المقص، وقد دارا حول خندق الفناء وذهبا حتى الشرفة المقابلة. والآن بات صوتها يسمع:

- أي تراب أحثو في وجهي، أختاه؟... جاؤوا ووضعوا الأصفاد في يده وأخذوه.

كانت أمي تبكي وتذرف الدموع بهدوء. قُبض على خواج توفيق وأبي أيضًا وليس معلومًا أين سقطت جثة آفاق. ويد الله وفتح الله اللذان ذهبا إلى

العمل عادا في الليل، ولو جاء خواج توفيق لأرسلني إلى متجر الشركة.

انشغلت، مجددًا، بأنثى الحبشي. قبعتْ في مكانها كالرصاص، لا تتحرك، أظن أنها وضعت بيضًا. إنه صوت الأقدام من جديد. كانت هذه المرة ساقا زوجة موسى سرميداني من تحت البيجامة الشفافة، تطآن أرضية فناء البيت.

ثبّتُ ركبتيّ على الأرض وجعلت يديّ عمودين وأخرجت رأسي من بيت الحمام كي أرى أين جلستا.

لقد كانتا في الشرفة. لم تكن بانو معهما، أظن أن أمي أرسلتها لتخبر يد الله وفتح الله. كأن أمي كانت تتكلم، كانت شفتاها تتحركان وصوتها يختنق تحت هزيز جهاز الخلاّط. زحفتُ إلى بيت الحمام، وهذه المرة لهوت بأنثى «أبيض الذيل». وبينما أنا كذلك إذ بصرخة أمي تكسر سكون الفضاء، ثم بعد ذلك تداخل عويل النسوة. نططتُ خارج بيت الحمام فعَلِق ظهري بأعلى الإطار، وإذ بي أفكّر في خصري رأيت يد الله وفتح الله وقد وضعا جسدًا على سلّم خفيف وطفقا يطوفان به حول خندق الفناء وهما يجهشان بالبكاء. ركضت. انسدلتْ خارج العباءة الملقاة على الجثة خصلةُ شعر سوداء برّاقة وكانت تهتز. كانت عباءة آفاق السوداء وكان شعرها الناعم المتموّج يبرق. وضعا السلّم في الشرفة وشرعت أمي تلطم صدرها. بعد ذلك دلف من باب بيتنا النساء والأطفال وهبّوا إلى الداخل، ولم أكد أترك المكان كي أغلق باب بيت الحمام خشية من الأطفال حتى امتلأ بيتنا. جلس الناس من حول جثة آفاق يلطمون وينتحبون.

الآن، ارتفعت أشعة الشمس عاليًا فانكسر ظل عمود الحقل الكبير على جدار بيتنا الطيني ثم هوى على رؤوس الجموع، وسقط منتهاه على أحراش وحشائش الخندق وسط البيت. وظل هزيز الخلاّط يخبو تارة ويحتدم أخرى.

شرعوا الآن في وضع أساسات المخزن الحادي عشر.

جاء أبي ظهرًا. أخذوا منه تعهدًا بأن يفرغ البيت حتى نهاية الأسبوع. ولم يتبق على نهايته سوى يومان.

أخذتُ حماماتي وربطت أجنحتها ثم وضعتها تحت السلة كي أصنع لها عشًا.

منذ طلوع الشمس إلى الظهيرة قطعنا أكثر من عشر طرقات ذهابًا وإيابًا نحمل المتاع، وكانت هذه المرة الأخيرة التي يشحن فيها أبي الكراكيب في كيسين يحمل هو أحدهما فوق كتفه وأحمل أنا الآخر.

فجأة علا صوت الجرّافة ورأيت جدار بيتنا الطيني وقد اهتز ثم تفكّك وانهار أرضًا.

زمجر أبي بين شفتيه: «كفار! لم يمهلونا حتى نخلي البيت».

كان نصل الجرّافة واسعًا وحادًّا، تمَّ دفعه إلى الأمام فاعتلى خراب الجدار وأوغل في داخل البيت.

حمل أبي الكيس على كتفه وقال: «هيا يا بنيّ... هيا انطلق».

كان الكيس ثقيلًا، رفعته بمشقة فنكست ظهري تحته، ولم أكد أتجاوز عتبة باب البيت حتى تلاشى عشّ حماماتي فوق نصل الجرّافة الحاد والبرّاق كما تتلاشى فقاعات رغوة الصابون.

كنت في الزقاق حين توجهتْ نظراتي صوب السماء. لا أدري كيف فكّ الذّكر الأبيض العقدة وخرج من تحت السلة وطار على ارتفاع بيتنا حتى صارت سلاسل الجرّافة العريضة تجلده.

وضعتُ الكيس أرضًا ونظرت إلى الحمام وقد أوطأ جناحه وجاء يتهادى حتى وصل إلى أنقاض بيتنا. ثم ارتفع وطاف وطاف وكأنه لم يكن يميّز البيت،

وكأنه كان حائرًا. صفّرت له فعرف صفيري فانحدر إلى أسفل ومطّ عنقه، رفرف جناحيه ثم فجأة ارتفع عاليًا وارتقى وعلا إلى أعلى وأعلى حتى اختلط بزرقة السماء.

رنوت إلى أسفل الزقاق فلم أجد أبي. لقد ذهب ومكثت أنا مع الحِمل الثقيل الذي يتوجب نقله على الكتف.

22 - الغليون المقصود في نص هذه القصة هو ما يسمى أيضًا بـ (الوافور)، وهو خاص بتدخين الأفيون.

23 - من أشهر ملوك الدولة القاجارية في إيران وأطولهم جلوسًا على عرشها.

24 - كتاب أنوار السهيلي هو إعادة لكتابة كليلة ودمنة بقلم حسين واعظ كاشفي، أُلِّف في أربعة عشر فصلًا بأمر من الأمير نظام الدين السهيلي.

25 - مؤلف باللغة الفارسية وضعه حسين بن علي الواعظ البيهقي (المتوفى سنة ٩١٠ه) في العلوم الغريبة والسحر والطلسمات والنيرنجات.

الفصل 10

إسماعيـــل فصيـــح (١٩٣٥-٢٠٠٩م)

قاص وروائي ومترجم إيراني ازداد بمدينة طهران في العام ١٩٣٥م. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بإيران. وفي العام ١٩٥٦م رحل إلى أمريكا لإكمال دراسته العليا وحصل فيها على البكالوريوس في الأدب الانجليزي ثم عاد إلى إيران. بعد عودته عمل لفترة مترجمًا في دار للنشر، ثم في العام ١٩٦٣م اشتغل في الشركة الوطنية للنفط في جنوب إيران.

أول عمل صدر لإسماعيل فصيح رواية «الخمرة الخام» (١٩٦٩م). بعد ذلك صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «تراب مألوف» (١٩٧٠م). يعتبر فصيح من أوائل الروائيين الإيرانيين الذين فتحوا باب الرواية الفارسية في وجه الطبقة المتوسطة، وهو أيضًا صاحب السبق في الكتابة في تيمة الحرب الإيرانية العراقية، في روايته «شتاء ١٩٨٤م». من جملة أعماله المعروفة التي ترجمت إلى اللغة العربية روايات: «قصة جاويد» (١٩٨٠م)، و«ثريا في غيبوبة» (١٩٨٤م)، و«آلام سياوش» (١٩٨٥م).

توفي إسماعيل فصيح في العام ٢٠٠٩م إثر مرض ألمّ به في الدماغ.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (عقد)، وهي مأخوذة من مجموعة (عقد وداستانهاي ديگر) [عقد قران وقصص أخرى]، ص٣٣، منشورات أمير كبير ١٩٧٩م.

عقد قران

كانت آخر جمعة صامتة ومقفرة من شهر أيلول. كان الجو، من قبل الظهيرة، غائمًا من دون رياح، لم يكن حارًا ولا باردًا، لكنه كان مملًا. لم تكن السماء بادية وكان الضباب نازلًا، والأرض تترقب أمطارًا لم تكن لتهطل.

عند مخايل الغروب استفقت من نوم باهت وهامد في القبو. توجهت إلى الحمّام ثم عدت وارتديت ملابسي. كنا مدعوّين في الليل لحضور حفلة قران في مكان ما.

على الساعة الثامنة والربع وفي جو قائظ وخانق وسط ضباب الليل، كنت أنا وزوجتي نبحث في الشارع عن عنوان البيت الذي دعينا إليه. ولاحقًا وقعت أحداث عجيبة. نسيت اسم العروسين، وكان ذلك بفعل تأثير الكحول، أو بسبب الشيخوخة. مهما كان، ففي هذه الليلة وبشكل مفاجئ، ضرب حجاب النسيان على هذا الجزء من دماغي. لم أخبر زوجتي بشيء. كنت أحس أنني وزوجتي نعرف عنوان البيت. أنا كنت أعرف البيت-لكن هذا فقط. كان ثمة قنديل نفطي أمام باب البيت.

كان الباب مفتوحًا فولجنا. كانت ساحة البيت تخضع لأشغال التبليط بالطين، والمصابيح الكهربائية والنفطية متقدة. أمسكتُ بذراع زوجتي وقصدنا البناية. تقدّم لاستقبالنا من أعلى السلالم رجل أنيق الملبس وخط الشيب رأسَه، لم أكن أعرفه. صافحني مرحّبًا: «تفضلا، تفضلا، أهلًا ومرحبًا».

اجتمع المدعوّون لحفل القران في صالة كبيرة. توجهتْ زوجتي صوب جمع النسوة الحاضرات في المجلس وغاصت بينهن. بينما وقفت أنا وحيدًا وأخرجت سيجارتي. كانت سفرة العقد ممدودة، وعليها مرآة وشقائق النعمان، بجانبها صوان وبساط حريري وما إلى ذلك. لم يكن العروسان حاضرين. جلس مجموعة من الضيوف على أرائك تحيط بالصالة، فيما ظلت مجموعة أخرى، ربما ثلاثة أضعاف الجالسين، واقفة. كان الجميع يتكلم ويضحك، وصوت الموسيقى يسمع آتيًا من مكان، يشبه عزف مقطوعة

(مبارك أيها الحبيب!)26. ألقيتُ التحية على بضعة نفر كانوا على مقربة مني وسألتهم عن أحوالهم. لم أكن أعرف أحدًا من الحاضرين في الصالة. قلت في نفسي حين أرى العروسين سوف أتذكر كل شيء. بعضهم رمقني بنظرة مستطلعة. أشعلت سيجارة ووقفت لائذًا بالصمت. وددت لو أنني لم آت إلى هذا المكان، حتى إني نسيت كيف دعيت إلى الحفل. وددت لو رجعت بهدوء وتسللت مغادرًا.

قصدتني امرأة أربعينية، سمينة ومتزيّنة بماكياج، واسعة العينين، ترتدي قميصًا أزرق مخمليًا، وتحمل بيدها صينية عليها كأس من شربات الكرز.

قالت: «مرحبًا، تفضلوا»، ثم أردفت: «أنا فريدة أحمدي، أخت العروس. أهلًا ومرحبًا بك». كانت من عائلة العروس ولم أعرفها.

تواضعتُ وعرّفتها نفسي.

قالت: «هل أنت صديق للعريس أم من أقربائه؟».

رميت قدّاحتي ثم التقطتها، وبدأت أتعلّل. لم أكن أعرف كيف أرد على هذه المخلوقة. سألتها: «أين الأولاد - العروسان؟».

«لم يرجعا بعد من صالون التجميل». ثم تابعتْ: «سيدي، أترى كيف تتقلّب الحياة... عندما ازدادت أختي بريوش، يعني العروس، كنت أبلغ الثانية والعشرين من عمري. وكنت قد أنهيت للتو الدراسة في تخصص القِبالة. أنا اشتغلت قابلة لكل أفراد عائلة أمي. وفي الليلة التي ازدادت بريوش، كنت أنا من ولّدها. كنت بِكْر أمي، وكانت تبلغ الرابعة والأربعين عندما ولدت بريوش. أنا التي حضرت ولادة بريوش، وأنا التي حملتها وقلّبتها وضربت على ظهرها وأخرجت صيحتها وجعلتها تتنفس. ثم نظفتها ولففتها في خرقة ووضعتها في حضن أمي. يا الله، واليوم، أنا من أضع يدها في يد زوجها. أليس هذا أمرًا مثيرًا؟ وبالتأكيد، سوف أولّد بريوش نفسها في السنة لمقبلة». كان المكان

ضاجًّا بصوت (مبارك أيها الحبيب!) وأصوات الضحك والكلام، وبصعوبة بالغة كنت أسمع كلام المرأة.

قالت: «بالتأكيد أنك سمعت عن بريوش، هي أيضًا درست القِبالة. وهي قابلة».

أطرقت رأسي. ارتشفت من شربات الكرز، كان ماؤها كثيرًا.

غنجت المرأة ذات القميص الأزرق المخملي وسألتني: «هل تستطيع أن تخبرني بمحتوى تلك القنينة الصغيرة في سفرة العقد؟».

نظرت وخمّنت أنه لابد أن يكون زئبقًا. قلت لها: «لست متأكدًا».

قالت: «إنه الزئبق. كان أيضًا في سفرة عقدي. أعطتني أمي شيئًا كي أخفيه في يدي. قل ماذا كان؟».

قلت: «ماذا كان؟».

قالت: «حبة بندق. لكنه لم يكن بندقًا عاديًا. أخرجت أمي نواة البندقة وصبّت الزئبق في قشرتها، ثم شمّعتها. أعطتني إياها كي أحتفظ بها طوال فترة العقد حتى يظل قلب العريس يخفق وينبض لي كما يخفق وينزلق الزئبق في قشرة البندقة».

ابتسمتُ.

قالت: «آه، تبًّا لي! على فكرة، الزئبق لأصحاب البخت الحسن. كل الأشياء المبثوثة في سفرة العقد لها معنى وفأل. فالماء رمز للضياء، والورد والخضرة رمز للسعادة، والعسل والشحم لأجل حلاوة الحياة ودسامتها. والبخور له فأله أيضًا، والخبز والجبن يهبان البركة، وكل من يأكلهما تسلم أسنانه من الألم».

أومأتُ إليها موافقًا، وأشعلت سيجارة أخرى.

حين غادرت المرأة ذات القميص المخملي الأزرق، وقفت صامتًا أجذب نفسًا من سيجارتي. كان يراودني إحساس بالسخرية وكأني كنت بكمًا في أرض غريبة.

نهض رجل بدين من بين الضيوف وجاء نحوي وهو لا يزال يضحك. احتبست في جنبات شفتيه رغوة بيضاء. مدّ يده: «مرحبًا أيها السيد، أنا علي بور، خال عريسنا السلطان، مودتي واحترامي».

تواضعت مجددًا وعرّفت بنفسي. هذا الرجل أيضًا لا أتذكره.

سألني: «كيف أحوال جنابكم وحال حرمكم؟».

قلت إن أحوالي ليست سيئة.

قال: «لم يعد في الدنيا خير ولا بركة. قسمًا بروحك، في السابق كنتَ تلفي الخمر مبثوثة في ركن من أركان محافل الفرح والحفلات، فكان الناس يرتشفون ويبللون شفاههم. أما الآن فصار كل شيء فونوغرافا وشربات وبيبسي وأسطوانات غرامافون».

أحنيت رأسي وواسيته.

تابع: «إذا أردت الحياة الحقيقية ففي القديم؛ كان للزفاف والقران همة وشأن. كان حفل الزفاف يتواصل حتى الصباح. في الفناء كان المطرب يجلس إلى حوض الماء. كان صوان بيتي محشوًا بالخمر ولوازم تدخين الأفيون.. شرب الخمر وتدخين الأفيون سرًّا في مثل هذه المجالس له عالمه الخاص».

كانت تنبعث من فمه رائحة الكحول والدخان.

قال: «أنا مسؤول القسم التنفيذي بالبلدية. زوّجني المرحوم والدي في سن الرابعة عشرة. لم نكن نعرف، على الإطلاق، لا المرأة ولا الدنيا، ومن يتحكم فيهما. لم أتعرّف على أهلي إلا بعد أن جلست في سفرة عقد القران وأتمّ المُلاَّ قراءة خطبة عقدي. ووالدي أيضًا كان يحكي أنه في الأساس لم ير وجه زوجته إلا غداة عرسه. في ذلك الزمان كانوا يفرشون سفرة العقد في حجرة النساء. وليلة الزفاف كانوا يخفون رأس العروس بشبكة سميكة ويدورون بالعروسين ويسلمونهما من يد إلى أخرى، ولم يكن العريس يرى عروسه إلا في آخر الليل بعد أن تطفأ المصابيح. لكن المرحوم والدي كان قد رأى أمي عدة مرات في ملاءة تغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها. حكى لي أنه تذكّر المرة الأولى، حين كان يحفر قبرًا ذات يوم في ضريح الإمام عبد الله (في سن السبعين، زاول أبي كل الأعمال، وفي فترة كان حافرًا للقبور، ثم صار مسئولًا عن المقبرة، وفي وقت لاحق التحق ببلدية مدينة ري)، خلاصة القول، كان يقول إنه في يوم صيفي حفر قبرًا حتى صار عميقًا، وعند صلاة الظهر حيث لا مكان لظل، جلس هناك في قعر القبر. وبينما كان منهمكًا في تناول الخبز والكرّاث إذ رأى الشيخ فضل الله وابنته يقفان على رأس القبر... كان الشيخ قد أحضر لأبي من بيته إبريق شاي وأحضرت ابنته طبق حلوى. قال أبي: إن قلبي انفطر من قامة وطول تلك الفتاة المتلفعة في شادورها فعشقتها من سويداء قلبي. ذكريات الحب في ذلك الزمان لها طعم خاص سيدي، أليس كذلك؟».

«نعم».

كلام، كلام، كلام. ما كل هذا الكلام؟ ما هذا المكان؟ ظل كأس شربات الكرز منتصفًا في يدي. اعتذرت للسيد علي بور متذرعًا بوضع الكأس على الطاولة وانطلقت باحثًا عن كوة أو طاولة. أمسك شاب بذراعي: «أتسمح لي أن أحشوه؟».

أراني سدادة قنينة خمر بداخل جيب سترته الداخلي ثم غمزني بعينه. كان يلبس بدلة زرقاء تحتها قميص أبيض بكرافتة حمراء. كان ذا شوارب جد رفيعة، وجمجمته الكبيرة تحتفظ ببقية من شعر بلوطي موخوط ببياض يسير. قدّم نفسه المهندس مسعود كريمي-مهندس في الصحة. له كرش تماثل قربة، كبيرة ومتهدلة ومعلّقة على حزام سرواله. من المؤكد أنه قرأ في ملامح وجهي أمارات الرضا، أو ربما أكون أنا قد غمزته بعيني، حيث أخرج، خفية، من جيب سترته الداخلي قنينة الخمر واستقبل الحائط ثم أفرغ ببراعة قليلًا من السائل البني في كأسي. لم ينتبه أي أحد. فقال: «مبارك أيها الحبيب!» فشكرته.

كان منخره أحمر من السكر. كأنه كان مجايلًا لي –ستا وثلاثين أو سبعًا وثلاثين-. وضع يده على كرشه وقال: «هل أنا سمين، عزيزي؟!».

قلت: «على الإطلاق». كان على وشك الانفجار.

«عزيزي، أقصد البطن... هل لدي بطن؟».

لوحت برأسي.

«يقولون لي إن لك بطنًا كبيرًا، لكن قسمًا بروحي ليست شحمًا بل عضلات. كنت أمارس التمارين الرياضية، إنها كالفولاذ، تعال والْكُمْني».

قلت: «واضح أنها كتلة من العضلات!».

«اضرب، هيا اُلْكُم، اضرب كي ترى كم هي فولاذية».

وضعت قبضة يدي على بطنه وضغطت فجمّدها. قلت له: «إنها كالصخر!».

قال: «كم وزنك؟».

قلت: «خمسة وسبعون أو سبعة وسبعون».

قال: «وزني ثمانية وثمانون كيلو. لست أثقل منك كثيرًا».

قلت له ساهيًا: «الخمر لوحده يخسِّس».

قال: «كل يوم أشربُ زجاجة إلى زجاجتين ونصف». من المؤكد أن قولك صحيح.

التفتُّ إليه، فإذا به مثل معجون. قال: «أيها الرفيق، ما رأيك في العقد والزواج ومخلفاتهما؟».

حرّكت رأسي بالنفي. قال: «محبك تزوج ثلاث نساء حتى الآن. في المرة الأولى كنت حمارًا. لكن في المرات اللاحقة صرت حمارًا منضبطًا» ثم أطلق قذائف ضحكاته. نظر إلى ما حوله ثم واصل: «في المرة الأولى زوّجني أبي. كنت حمارًا متعصّبًا لا أرضى أن ترى الشمس زوجتي. أعمى الحسد والجنون بصري. أتعرف ماذا فعلت؟ قصصت شعر زوجتي بعد ثلاثة أيام من زفافنا حتى لا تخرج خارج البيت. آه! كان والداي من أغنى الناس في شارع سعدي، وكانا يعتنيان بي كثيرًا. لكن في النهاية لم يكن والداي على توافق مع والدي زوجتي، لذلك كان الوداع. في المرة الثانية، كنت في الخدمة العسكرية وعشقت، وتزوجت لأجل الحب، لكن زوجتي كانت مدللة وتعيش في غنج. لم تكد تمر السنة الأولى حتى طلقتها. هل أزعجتك؟ هدفي في الحياة هو أن يظل الزوج والزوجة معًا حتى لا يعودا كذلك. فحين يرى الزوج أن حياته لم يعد لها أي طعم يأخذ بيد زوجته ويقول لها: عزيزتي، إلى الآن كنا بخير، من اليوم يختار كلٌّ منا طريقه. في المرة الثالثة، تزوجت من أجل المال، وهذا الزواج منطقي في أيامنا هذه... هل أسكب لك مجددًا؟»، وأشار إلى جيبه الداخلي.

قلت: «لا، شكرًا. إنني أصاب بصداع الرأس». كان حقًا، لم أكن أحس بجمجمتي. ألقيت نظرة إلى الصالة؛ لا أثر للعروسين. كانت زوجتي مشغولة مع بضع نسوة في ركن من البيت، لم أكن أعرفهن. خمر المهندس كان مثل شربات كرز أخت العروس، معظمه ماء ولا طعم له. لم أفهم ماذا كان. كنت أمنّي النفس بأن يأتي العروسان، كائنًا من كانا، فأراهما وينتهي كل شيء ونروح إلى حال سبيلنا. لكن لا خبر عن العروسين في هذه الليلة السمجة التي تلاشت فيها أغنية (مبارك أيها الحبيب!) بين الأصوات الصاخبة وضحكات الضيوف، بينما كنت أنا أبحث في ثنايا مخيلتي وشعوري عن الأسماء والصور والماضي. نظرت إلى سفرة العقد، كانت الشموع تحترق ورأسي يصاب بدوار.

تذكرت ذات يوم حين كنت طفلًا فأمسكت أنا وطفل آخر بفراشتين ووضعناهما في قارورة مربى فارغة وأحكمنا غلق السدادة، ثم جعلنا القارورة فوق قطعتي صخر مثل قدر فوق النار. كنا نشعل عود الثقاب ونضعه تحت الزجاجة حتى يحترق العود بأكمله ويتلاشى. في البدء شعرت الفراشتان بالدفء والحرارة وكأنهما استعادتا حيويتهما، فكانتا ترفرفان أعلى وأسفل وعلى بعضهما. بعد ذلك، غطى الزجاجة الدخان حتى غدت سوداء، وتباطأت حركة الفراشتان وتعبتا، ثم نُزعت أجنحتهما واندثرت. وفي الأخير، لم يتبق من الفراشتين سوى قدر يسير من الرماد في قعر زجاجة المربى. فتحت سدادة الزجاجة ونثرت الرماد وأخذه الريح. كانت لعبة. ولكن رأيتني أذرف الدموع وكأن باطن صدري كان فارغًا، تمامًا مثل هذه الليلة في حفل القران هذا.

كانت الصالة لا تزال تعجّ بالأصوات والضحكات وأصداء (مبارك أيها الحبيب!) وأصوات اصطكاك كؤوس الشربات وارتطام أوعية الكؤوس بالصينية، وأصوات السكاكين والشوكات والأطباق، وصوت قرقعة الأرجل، وصوت احتكاك التنانير الخيطية الصقيلة..فيسبب لي الشقيقة.

تقدّم إلى الأمام رجل مسن، قصير القامة، بشعر رمادي. جاملني وقدّم إلي عنقود عنب. كان وجهه مألوفًا، لكني لم أكن أعرفه. كان شكله يشبه، إلى حد ما، شكل أبي في سنواته الأخيرة. تحدث ببضع كلمات غير أني لم أسمع صوته. حين أدنى وجهه رأيت تحت ضوء المصباح أن عينيه تشبهان كثيرًا عيني حماي. كنت أرى شفتيه تتحركان. أسنانه مبعثرة وبنية اللون. شفتاه سميكتان وغامقتان ومتشققتان. قال بصوت أعلى: «قلت لك تفضل، تفضل وحلِّ فمك».

شكرته، وتناولت حبتي عنب.

قال: «كأن جنابكم غريب ووحيد مثلي».

قلت: «إلى حد ما».

قال: «كلما رأيت عقد قران جديد يرتفع البخار من رأسي، ويود قلبي لو أركض وأمسك بيد عاهرة، وأفرّ بها خارج المدينة».

ضحكت مؤيدًا. ثم سألته بلطف: «أتعرف من يكون العروسان؟ أنا لا أعرفهما جيدًا».

ضحك قائلًا: «سيدي، أنا نسخة طبق أصلك. ما أعرفه فقط هو أن العريس ابن أخت رفيقنا السيد علي بور - وهو مساعد طبيب، يعمل في البلدية، يقال إنه أحد مسئولي مغسلة المقبرة الجديدة. قسمًا بالله، إذا قلت لك إنني أحضر سبع حفلات قران وزفاف في الأسبوع ولا أعرف أبدًا من يكون العروسان، فيجب أن تصدقني» ثم ضحك.

كان العنب الذي قدمه إليّ بطعم الماء ولاذع قليلًا. قال: «أنا أُدعى حسن بهرامي، وأعيش في بيت مع سبعة ذئاب، وليس سبعة ثعالب أو سبع حرباوات».

كنت أعرف قصده.

«... وفاطمة المنشار» وانفجر ضاحكًا. ثم أردف: «هل فكّرتَ، حتى الآن، في أن الزواج بامرأة هي لعبة مكلّفة مستمرة حتى حافة القبر؟!»َ

أومأتُ برأسي أي نعم.

قال: «نعم، يا له من حيف!». بعد ذلك صار مقرّبًا وبلا كلفة. أدنى رأسه إلى الأمام: «ذات شهر، لّما ذهبت فاطمة المنشار والأولاد إلى قصبة ميكون لقضاء يومين أو ثلاثة، سوّلت لي نفسي أن أقوم ببعض الشقاوة في ليلتين أو ثلاث ليال. ذات ليلة-الليلة التي حدثتك عنها - هاتفت سيدة كنت أعرفها وطلبت منها القدوم إلى المنزل بمعية اثنتين من رفيقاتها. قلت لها لدي ضيوف أعزاء وينوون السفر إلى أمريكا. وفي الليل، لمّا حضرت السيدات استقبلتهن بمفردي، واعتذرت لهن لأن أصدقائي استقلوا طائرة في وقت مبكر. اقترحت عليهن البقاء. ابتدرنني بطرف العين ونظرن إلى بعضهن البعض ثم قررن المكوث. وأثناء تناول وجبة العشاء رأيتهن يتهامسن. بعد ذلك وفجأة هبّت النسوة وغلقن الأبواب وسحبن الستائر... ».

لم أعد أسمع صوته. سعلت في منديلي وسوّيت صدري حتى أفشل هجوم القيء.

بعد أن فارقتُ الرجل صاحب الشعر المجعّد، بتّ على وشك الوقوع في وهدة الماليخوليا بأن العروسين لن يأتيا أبدًا. خطر ببالي أنهما قد فرّا أو أن الحفل قد اضطرب. وكنت شيئًا فشيئًا أقتنع بأن الحاضرين في الحفل يذهبون بانتظام إلى الغرف الأخرى، ويأتي أناس آخرون لأني لم أعد أرى الناس الذين رأيتهم عند دخولي. ثم شيئًا فشيئًا بدأت أشكِّك في حقيقة بساط عقد القران برمته وفي أحاسيسي وفي كل شيء. كان فمي مرًّا.

نهضتْ من بين الجمع امرأة تحمل في حضنها طفلًا وعبرت من أمامي. كان الطفل الصغير بدينًا يعلو شفتيه الحليب الجاف، ومقدمة لباسه مبللة بماء القيء. كان الطفل يرنو إلى الحشود بعينيه الخامتين المتحيرتين. ما رجّ دواخلي بقوة في الطفل وأمه، هو شبههما العجيب بصورة لي مع أمي في شهري السادس. لمّا انتبهت المرأة إلى تأملي في الطفل أبطأت المشي قليلًا، ثم ابتسمت لي وأذنت برؤية الطفل، وما لبثت أن ابتعدت وهي تردد: «وسيمي، كوز عسلي! أفتديه بنفسي».

اقترب مني شاب طويل. كان به شبه من صهري. أخرج لفافة سيجارة من علبة بديعة ومنقوشة وقدّمها إليّ. كانت سيجارة عجيبة، صفراء وقصيرة. قال إنها يابانية ولا تحوي النيكوتين؛ أبطلوا مفعول النيكوتين فيها بواسطة سم أفعى كيميائي. أوقد عود ثقاب وأشعل سيجارتي. كانت له عينان وقحتان وغامضتان، وكان مثقفًا طويل اللسان. يسمى الدكتور بهرام الطوسي - سوسيولوجي. كان خال العروس وقال إنه درس في بمباي. سألني: «سيدي، ما رأيك في الختان؟». كان يرتدي بدلة من لونين، وحواف سرواله واسعة. قميصه أصفر فاتح، يطوق عنقه بكرفاتة، ومنديل بدلته أرجواني.

أجبته: «ليس لدي رأي في هذا الموضوع».

كان مصرًّا فقال: «فكّر بجدية. في رأيك... هل هو ضروري؟».

قلت: «ماذا؟».

قال: «الختان».

قلت: «لم أفكر في هذا الموضوع على الإطلاق». لم يكن للسيجارة اللعينة التي قدّمها لي طعم ولا رائحة ولا حتى دفء. تدخينها كان بمثابة تدخين غشاء سيجارة فارغة.

قال: سيدي، ضروري! يجب أن تفكر. أنظر إليّ، يولد الطفل فنأتي إلى عضوه الحسّاس الذي وهبته الطبيعة إياه، ونبتر منه جزءًا. نخرج من ماهيتنا الطبيعية ونتحول إلى ماهية أخرى. ألم يهتد البشر، مع كل هذا الرقي والتقدم، إلى أن يجلس ويفكّر في هذا الأمر؟ وماذا عن النساء؟ ألا يجب أن نعرف رأيهن؟ أليس للموضوع علاقة بهن؟».

قلت له: «يمكنك أن توجه السؤال لهن».

ضحك وقال: «لا يا حضرة، أنا جاد». كانت له عادة مستفزة؛ كان كل دقيقة يعدّل عقدة ربطة عنقه، وينفض برأس أصبعه ذرات الغبار العالقة على بدلتي بمحاذاة كتفي. قال: «أنا الآن أدرس نظرية طبية حول لزوم الختان... فأنا أعتقد أن الأوان قد حان لتوضيح هذا الأمر في هذا العصر العجيب، عصر العلم والديمقراطية والوعي الاجتماعي الذي صار فيه الجنس والدم موضوعين ساخنين في المجتمع... أرجو أن تعبر لي عن رأيك-آخذًا بالاعتبار افتراض أن هذين الزوجين، الرجل والمرأة اللذين يتزوجان الليلة، سيكون لهما تأثير على حياة ومصير رجل، هذا إذا افترضنا أنهما سينجبان وسيكون طفلهما ذكرًا، فإنها سيؤثران في حياة إنسان سيكون بعد عشرين سنة رجلًا في دنيانا. إنهما يقطعان جزءًا من بدن إنسان بدون إذنه ورضاه ويرميانه بعيدًا. لا مكان في الدنيا تضع فيها أحكام الدين السكين على جسم طفل إنسان... ».

أغمضت عيني وأخذت أقاوم موجة جديدة من اضطرابي الداخلي الذي كان ينخر كياني ويعصف بأعصابي. ما معنى هذا الحفل؟ وما هذا الكلام؟ أين العروسان؟ وهل هناك أصلًا عروسان؟

سألني الدكتور الطوسي: «سيدي، هل أنت بخير؟».

قلت له: «لا شيء».

لمّا غادر تناولت سيجارة أخرى من علبة سجائري وأشعلتها. صارت حالتي أسوأ مما كان. بتُّ خائفًا أترقّب الناس في الصالة وسط دخان السيجارة وضباب دماغي. كان الضيوف لا يزالون يترنحون ويتحدثون ويضحكون. حتى زوجتي لم أعد أراها، هي أيضًا ذهبت إلى إحدى الغرف بلا شك. لم أكن أرى وجوه الضيوف كذلك. كنت فقط ألمح ظلالًا وأسمع أصواتًا. أحسست أن وجهي، هو الآخر، صار أبيض محوًا. كنت أنا أيضًا ظلًا. ثم في هذه الثانية وقعت أشنع الأشياء.

من بين تلافيف الظلال انبعث وجه امرأة أبيض وقصدني. كانت أسنانها البيضاء والكبيرة، التي تغادر فمها عندما تضحك، تذكرني بأخت زوجتي المحببة إلي. لكنها لم تكن أخت زوجتي. شعرت فجأة بنبضات قلبي تخفق بشدة. لقد عرفت الوجه. لأول مرة في هذا الحفل أتعرّف وجهًا. كان وجه بروانة.

كانت بروانة أول حب في حياتي، وكان ذلك في سن الخامسة عشرة، لكن هذا الحب فشل. تزوجتْ بروانة مرتين قبل أن أكمل دراستي الجامعية. لم أرها منذ سنوات طويلة. واللحظة، وهي آتية ناحيتي ينساب إلى دماغي سيل من أحاسيس الحب والسنوات الضائعة. تقدّمت بروانة وألقت التحية ونادتني باسمي، وأتبعته بكلمة «آغا». انتابني الحزن لأن بروانة قد تغيّرت.

كانت ترتدي قميصًا مورّدًا أرجواني اللون، من المقاس الكبير، مع تنورة واسعة. وتُمنطق وسطها بحزام موشّى بالتِّرْتِر لونه متسق مع لون نير الكتف وسوار القميص الشبكي الأبيض. غير أنها غدت سمينة ومنتفخة. الكثير من الأشياء ماتت في عينيها. قطرات العرق الدقيقة أفسدت شيئًا من ظل المسحوق الأخضر في أسفل حاجبها. بعد التحية لم تنبس بكلمة لبضع ثوان، وأفسحتْ لي المجال لتأمل عينيها. لم أعرف ماذا عليّ قوله.

بادرتني: «كيف أحوالك؟».

طأطأت رأسي فأردفَتْ: «ما شاء الله، كم صرت طيبًا!». تعبيرها وإفصاحها عن الكلام كان هو الآخر لا يخلو من الدعابة. سألتها: «كم طفل لديك الآن؟».

قالت: «ثلاثة أشقياء من نسل العبيد. وأنت كم لديك؟».

قلت: «شقي واحد من نسل العبيد».

ضحكت.

قلت: «مازلت جميلة!».

قالت: «هل تتذكر ليلة عرس الخالة مهري؟ أما زلت تتذكر أنك أعطيتني كل نُقولاتك وكل ما معك من فَكَّة النقود؟ كان عمري آنئذ ثمان سنوات».

مازلت أذكر تلك الأيام.

قالت: «ثم هل تتذكر آخر الليل حينما أمسك العروسان بيد بعضهما فتسللنا أنا وأنت، خلسة، واختبأنا تحت سرير نوم العروسين؟».

نعم، أتذكر تلك الليلة وتلك المهزلة المسماة حجرة العروسين. نكست رأسي مرتين أو ثلاث، فانفجرت ضاحكة ملء نواجذها حتى رأيت لسانها المُلحِم بالكامل وفتحة فمها الزهرية والمبتلة.

قالت: «أتتذكر كيف حبسنا أنفاسنا وعصرنا يدي بعضنا بإحكام؟».

أومأت بحركة من رأسي.

قالت: «ثم جاءت الخالة مهري والقائد فأطفئا الأنوار، وظلا طوال الوقت يَهِسَّان، ظنًّا منهما أن الجميع يراقبهما من خلف الباب والنافذة».

قلت: «بعد ذلك ذهب القائد إلى المرحاض خلف الحجرة ليتبول، فانفجرنا ضحكًا من صوت شلالات نياجارا».

ضحكت بروانة ثانية ثم قالت: «ثم رقدا على السرير، وظللت أنا وأنت ساكتين. أذكر أنك كنت تضغط يدي، وأنا... قبّلتك. ثم غالبنا النوم هناك تحت السرير».

بدا لي أن بعيني بروانة غبارًا وضبابًا عجيبين. لم يكن دمعًا بل غبارًا وضبابًا. لاحظت أن وجهها قد امتقع، وكان غبار عينيها وضبابهما على جلدها الرمادي الباهت يبديانها حزينة. وفي هذه اللحظة وبشكل مفاجئ، كان وقع الحقيقة عليَّ كالصاعقة. بروانة؟ بروانة؟ تساءلت ماذا تفعل هنا بروانة؟ ثم تذكّرت.

ماتت بروانة قبل ثمان سنوات أثناء ولادة طفلها الأخير. مكثتُ أحدّق فيها. وهي أيضًا فهمت فنكست رأسها.

قلت: «بروانة؟ أنتِ... ».

قالت: «أنا تعبت، سأذهب إلى البستان، إلى اللقاء». وقبل أن أتفوه بكلمة أخرى ذرعت الجمع وانصرفت. كانت أبواب الصالة الأمامية موصدة، فذهبت من الباب الخلفي وانطلقتُ في إثرها. حين أقفلت الباب من خلفي، انقطع، دفعة واحدة، الصوت والهمهمة والضياء، إلاّ أصداء (مبارك أيها الحبيب!) الجشَّة كانت ما تزال تصل من بعيد. صفعني نسيم البستان بحره وضبابه. لم يكن ثمة مصباح ولا نور سوى الذي كان يتسلل من نافذة مشرعة في البناية الخلفية. بيد أني، تمكنت من رؤية قميص بروانة المورّد بين الأشجار، فيمّمت طرفها. لمّا وصلت عندها لمستها، فالتفتت مذعورة وصرخت صرخة توحي بأنها لم تكن تتوقع مجيئي.

قلت لها: «بروانة، هل ما زلت على قيد الحياة أم أنا جننت؟».

قالت: «لا تسألني أسئلة غريبة، أنا لا أعرف».

قلت: «بروانة، ما تفسير ما حدث الليلة؟ ألم تموتي ذات خريف منذ ثمان سنوات؟ إذًا، ماذا تفعلين هنا؟ وما عقد القران هذا؟ ومن هؤلاء الناس غرباء الأطوار... والضوضاء... ؟».

«لا شيء، لا شيء. يجب أن أذهب».

«إلى أين؟».

«أنا مدعوة إلى عقد قران آخر في أسفل الزقاق».

«ماذا؟».

«أنا مجبرة... ألا تصدّق، صارت حياتي كلها على هذه الشاكلة، حفل قران بعد آخر، كل ليلة، كل ليلة».

ظللت أحدّق فيها والرعب ينخر كياني. لقد شُلّ دماغي وتوقف عن العمل.

قالت: «تعال!».

أمسكت بيدي واصطحبتني معها. اجتزنا الظلال المظلمة في قاع البستان وخرجنا من باب خشبي قديم. كان الزقاق خاليًا. قلت: «انتظري... هذا... ».

قالت: «أنا متعبة، متعبة جدًا. لا تسألني عن شيء ولا تسأل لماذا. من كثرة ما ذهبت إلى حفلات القران، كل ليلة حفل، أصبت بالدوار! كل ليلة..كل ليلة..أنا مجبرة. نفس الضوضاء، نفس الضحكات، ومقطوعة (مبارك أيها الحبيب!) السخيفة نفسها، والأحاديث الغريبة والفارغة، والشربات المائية، والفاكهة الفجة الأجنة. والسجائر الجافة عديمة الرائحة والفائدة، والعروس المُدلّلة

والعريس الصّفيق. وإذا دققت النظر، لا ترى أبدًا أثرًا للعروسين... وفي كل البيوت».

كان زقاقًا طويلًا وبلا نهاية تصطف على طرفيه منازل صغيرة وكبيرة، وأمام كل منزل قنديل نفطي.

أمسكت بروانة بذراعي وكنا نتقدم رويدًا رويدًا. كانت تقرأ لوحات المنازل وكأني بها قد نسيت اسم البيت الذي كانت مدعوة إلى حفل قرانه. بعد ذلك، توقفت أمام بيت وقالت: «لا أتذكر لمن هذا البيت، لكني أعرف أنه يجب أن نذهب إليه. نعم، هنا». ثم دخلنا البيت. كان فناؤه مبلطًا بالطين والمصابيح متقدة في كل مكان. نزل من أعلى السلالم رجل بدين حسن الهندام وصافحنا: «تفضلا، أهلًا ومرحبًا». كان صوت مقطوعة (مبارك أيها الحبيب!) آتيًا من الصالة، من خلفه.

كان الجو لا يزال غائمًا؛ من دون رياح، لم يكن حارًا ولا باردًا، لكنه كان مملًا. لم تكن السماء بادية وكان الضباب نازلًا، والأرض تترقب أمطارًا لم تكن لتهطل.

26 - مقطوعة شهيرة في إيران صاحبها المطرب محمد نوري، تغنى في مناسبات الأفراح وحفلات الزفاف.

الفصل 11

علي أشرف درويشيان (١٩٤٢-٢٠١٧م)

كاتب وقاص وروائي بارز، ولد في محافظة كرمانشاه الإيرانية في العام ١٩٤٢م. ولج إلى سلك التعليم سنة ١٩٥٩م وقضى ثمان سنوات في التدريس. التحق سنة ١٩٦٧م بجامعة طهران ودَرَس الأدب الفارسي، ثم تابع دراسته في مرحلة الماجستير في علم النفس التربوي.

تتلمذ على يد الكاتب والقاص الإيراني الكبير جلال آل أحمد، وكان تأثير هذا الأخير على درويشيان عميقًا جدًا، خاصة من حيث التعلق بمهنة التعليم ومناهضة الفقر والظلم.

أصدر درويشيان العديد من الأعمال الروائية والقصصية. من أشهر رواياته «السنوات الغائمة» (١٩٩١م)، و«الزنزانة ١٨»(١٩٨٩م). ومن أشهر مجاميعه القصصية «عن هذه الولاية» (١٩٧٣م)، و«موسم الخبز» (١٩٧٨م).

تُرجمت آثار علي أشرف درويشيان إلى العديد من اللغات. وآخر آثاره المترجمة المجموعة القصصية «آبشوران» التي ترجمتُها في العام ٢٠١٦م وصدرت عن دار روافد للنشر والتوزيع بمصر.

توفي هذا الهرم الكبير في العام ٢٠١٧م.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (حمام)، وهي مأخوذة من مجموعة (آبشوران)، ص٧٧، منشورات يار محمد ١٩٧٩م.

الحَمَّام

حين كان جرس الساعة يرنّ، لم نكن وحدنا من يطير من النوم فزعًا، بل حتى الجيران، كانت خردتنا ترنّ أحيانًا بالخطأ، مثلًا، في الساعة الثانية صباحًا أو الثالثة والنصف. لذلك كنا نحرّم النوم على جميع من بالدار مرة في الشهر خلال أيام الجمعة.

دقات جرس الساعة كانت مثل ضربة سيف، تهوي على رؤوسنا فنطير من النوم. كان اللحاف الدافئ وجو الغرفة البارد يجبراننا على دفن رؤوسنا تحت الغطاء، بيد أن أبي كان يقف على رؤوسنا ويسحب اللحاف ويوقظنا بالصخب واللّغط: -هيَّا، يجب أن نذهب، هيا، هل متُّم؟

فكنا، أنا وأكبر وأصغر، نستيقظ من النوم بأعين منتفخة وأفواه مُرّة ذات رائحة كريهة وبطون متهدّلة، لم نكمل رؤية أحلامنا الحلوة حتى النهاية. نمسح، على عجل، أعيننا متحسّرين على كل تلك النقود والحلويات التي رأيناها في منامنا.

لا نكاد نلتفّ من حولنا لنعثر على ملابسنا، حتى يكون أبي قد وصل إلى فناء البيت.

كنت أنطلق أولًا ثم أكبر، وبعده أصغر.

تثاؤب أمي وغضبها كانا يرافقاننا حتى الباب، وأيضًا بكاء عذرا وطلبها للخبز.

كانت لعنات وشكاوى أحد الجيران تتعالى من كل النوافذ:

- تذهبين إن شاء الله إلى حمّام باردا!

- أهذا وقت ذهابك إلى الحمّام، في أوج فصل الشتاء هذا؟

- تسقطين إن شاء الله على مغسلة الأموات، إلهي آمين!

في الناحية الأخرى من الساحة، يرتفع لغط بائع مثلجات عطّله فصل الشتاء عن العمل، ويسأل زوجته التي أطلّت برأسها من الغرفة تتقصّى الأخبار: - ما الأمر، في منتصف الشتاء هذا، هل هم الجيران؟

- لا شيء، مش سيفي يصطحب أولاده إلى الحمّام.

-أيها الحمقى! في هذا الزمهرير ستتحولون جميعكم إلى مثلجات.

كان أبي متعودًا على وضع معطفه على رأسه، بحيث يجعل أحد الأكمام فوق رأسه بالضبط، فيتموّج كمُّه مثل راية في تلك العتمة. ونحن، كجيش مهزوم متثاقل الخطوات، نزيح البرد ونتقدم.

تُغير علينا كلاب ضفة «آشورا» فينهار أصغر بكاءً، ويشرع أبي بالصراخ من بعيد مثل قائد المعركة الذي يستنفر جنوده: -اركضوا، أيتها الألبان المتخمّرة! يا ذوي الأيادي والأرجل الخشبية!

ويصيح على الكلاب:

- شش..هس..دب

فنركض سريعًا. خوفًا من الكلاب وخشية من أبي.

كل حمّام نطرق بابه، نلفيه مغلقًا. فنستمر في السير، بين الأزقة والدروب.

وكل مرة تزول فردتا حذاء أصغر المقلوبتان من قدميه، ولا نملك الوقت لقلب حذائه وتعديله.

واصل والدي تقدمه راكضًا والراية فوق رأسه. كنا نتابع المسير دون توقف حتى يبدأ الصباح بالانقشاع شيئًا فشيئًا، وتشرع الحمَّامات في فتح أبوابها.

خلّفنا وراء ظهورنا حمَّامات ضفتي آشورا، وتجاوزنا حمَّامات حارات: «قره باغي» و«سرتيپ» و«سينور» و«حاج شهبازخان» إلى أن وصلنا أخيرًا إلى حمَّام «السويقة».

كنا نخلع ملابسنا وندخل إلى الحمّام المرعب الفارغ، ونتقلّب فوق أرضيته المستعرة حرًّا، تقلب الطيور التي تُشوى فوق صفيحة معدنية. كنت أنا وحدي من يلبس مئزرًا، أما أصغر وأكبر فكانا يركضان من ورائي عاريين.

- اغسلوا أولًا أقدامكم، ثم أدخلوا إلى حوض الحمّام!

كان هذا أمر حامل اللواء الذي وضع توًّا لواءه في مستودع الملابس.

حين نخرج من الحوض الساخن، يصل دور إزالة الأوساخ بالدّلْك بالكيس. كنا نجلس ملتفين حول أبي مثل ثلاثة فراخ، خرجت في الحال من بيضها، فيبدأ بفرك أجسادنا بالكيس حسب أعمارنا.

كان الدّلك بالكيس بمثابة عقوبة، إذ كانت ضربات أبي لنا بالكيس، وفركه لما حول رقبتنا ووجوهنا قوية ومحكمة، لدرجة كنا لا نقوى فيها على تحريك رقابنا طيلة شهر كامل. فتطوّق رقابَنا طبقةٌ حمراء موجعة.

من فوق، كان وجه أبي يتفصّد عرقًا، وكنت أنا شاخصًا ببصري إلى سقف الحمام، لا أستطيع إغماض عيني كي أتفادى تسرب عرقه فيهما، لأنه سيغضب إن فعلت.

كانت النجوم تتأمل فينا من خلف نافذة الحمّام المُضبَّبَة.

كان يدلك الكيس بقوة ولا نجرؤ على التكلم لأن كل من يبدي عجزًا ولا يتجلّد يوسعه ضربًا.

بعد أن تنتهي مرحلة الكيس يحين دوري أنا لأدلك جسد أبي، لأني كنت الأكبر. وحين أفرك بدنه بالكيس لا يكفُّ عن الترديد: -أفرك بقوّة! أقوى، ألا تأكل الخبز، أيها المجنون الهزيل؟!

كنت أدعك جسده طوال اليوم، ومع ذلك لا يرضى.

-ادهن الـ«يارو»

فجأة، صَمَت بضعة أشخاص كانوا جالسين من حولنا، وابتدرونا بأبصارهم. كانوا يريدون أن يعرفوا ماذا يكون الـ «يارو»؟ ما هذا المعجون!

لكن «يارو» لم يكن سوى مسحوق أبيض.

-ادهن الـ«يارو»، هل أنت أصمّ؟ بقوة! يا شوربة الأرز الباردة!

المرحلة الموالية كانت مرحلة الغسل بالصابون، وكان أبي حين ينال منه الإرهاق، يتركها على عهدة دلاّك الحمام.

في تلك الليلة أو السحرية، على أي حال، في ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى حمّام «تيمچه» تمزق كيس الدّلاّك من المعصم، واستعمل عوضًا عنه لتدليك أجسادنا شيئًا يشبه الهاون. فكان أكبر الذي يتدغدغ كثيرًا حين يحتك هاون ذلك الرجل بإبطه أو صدره أو بطنه يرتجّ وينفعل، ثم ينفجر ضحكًا. فيصيح عليه أبي الذي لم يكن يعرف سبب ضحكه: -هل أصابك شيء! أيها الوقح، أيتها الحرباء، أيتها الأفعى!

كان أكبر نحيفًا وشاحبًا هزيلًا، ضعيفًا جدًا وعليلًا على الدوام. لكن في تلك اللحظة كان يضحك بقوة ويضحكنا جميعًا.

كان أبي يوشك أن يجن، وكنا نعلم أنه سينتقم منا.

انتهى الاستحمام بالليف، وحان دور آخر مرحلة، وهي الدخول إلى الحوض. صفّقَنا أبي ثلاثتنا بجانب سلّم الحوض مثل ثلاثة أكواز لم تُملأ. فأخذ بيدي أنا أولًا: - عندما تغطس في الماء، اغسل كل الثقوب والمسام في بدنك، كل شيء!

لم يمهلني كي أجيبه فغمرني في ماء حار وفاتك. شرعت في غسل بدني في الأسفل حيث لا مكان للصراخ ولا حتى للتنفس. كان نفَسي ينقطع، وشيءٌ ما يُوَزْوِزُ في أذني، حين أفتح عيني لا أرى سوى عالمًا رمادي اللون. لم يعد متسع في طاقتي التي بدأت تنفد، وفجأة أبدأ بالتجديف من الأسفل، وفي دفعة واحدة ينتشلني أبي من الماء، ولا أكاد آخذ نفسًا جديدًا حتى يغمرني في الماء من جديد، وهكذا.

يتكرر هذا السيناريو ثلاث مرات، كانت هذه عقيدة أبي.

بعد المرة الثالثة، التي يصير فيها جسدي كله أحمرَ مثل القطيفة، يُخرجني من الماء، وككوز أحمر يضعني بجانب أكبر وأصغر اللذين يرتعشان هلعًا.

وصل دور أكبر، وهو في حالته العادية لا يكون سليمًا. أغطسه أبي للمرة الثالثة فازرقّ بدنه، وفجأة أطلق صرخة تَوَجُّع، فأخرجه ورماه بجانبي، ثم رفع يده إلى فمه.

اضطرّ أكبر إلى عضّ يد أبي تحت الماء.

كان والدي مغتاظًا. وصل دور أصغر ليبتلع الماء ثلاث مرات. المسكين، بعد المرة الثالثة خرج من الماء ليس فيه الرمق.

يومها صدر من كل واحد منا خطأ. أما أنا فلم أدلك جسد أبي جيدًا. وأكبر عضّ يده، وأصغر ضيّع ما تبقّى من المسحوق الأبيض.

تريّث أبي حتى خلا الحمَّام ولم يبق سوى ذلك الدّلاّك. فجأة نزع مئزري وغمره في الماء، ومثل السوط، انهال علينا ضربًا بالمئزر المبتلّ.

لجأنا ثلاثتنا إلى الملاذ الحي الوحيد الموجود في ذلك الحمام المريع، الدّلاّك: -يا عمو الدّلاّك! يا عمو العزيز! نستحلفك بالله لا تدعه يقتلنا!

تذوّق الدّلاّك المسكين أيضًا ضرباتٍ من المئزر المبتلّ. ولم يسكن والدي إلا حينما ارتسمت على أبداننا خطوط المئزر المبتل الحمراء.

لمّا وصلنا إلى مستودع ملابس الحمّام وسرى هواء بارد في أجسادنا، استقاء أكبر بصورة مفاجئة وبصوت جارف: -هووججج...

فغمر أرضيةَ الحمَّام الخارجية بحرٌ من الثريد وطعام ليلة أمس غير المهضوم. فاشتاط أبي: -أيتها الحرباء الأكولة... !

ولا أدري لماذا ضحك.

سحب أكبر نفسه تجاهنا شاحب اللون يغطي جبهته العرق.

حان دور ارتداء الملابس وأبي ما فتئ يصرخ على رؤوسنا باستمرار: -بسرعة! أسرعوا، لقد تأخرنا. هيا، أيها المشلولون! يا ذوي الأيدي والأرجل الخشبية! أنتم تتحملون وزر ذلك الدّلاّك ذي اليد الواحدة، الذي يعمل ويكسب قوت يومه.

من فرط استعجال أبي لبسنا ملابسنا مقلوبة، أدخلنا يدنا من الياقة عوض الكم، ووضعنا الرجلين معًا في رجل واحدة من السروال، وسقطنا أرضًا. ولأن ملابسنا في العادة تكون أصغر منّا، كنّا نعصر الملابس ونضغطها، فنعرق ونحمرّ، ونبقي كل هذه الأشياء بعيدة عن أنظار أبينا.

في ذلك اليوم حين كنت منشغلًا بارتداء الجاكت البني الذي صَغُر عليّ، ونتيجة للتسرع أدخلت رأسي ويديَّ من الياقة. وبهذا الشكل، لا الجاكت أراد أن يُخلع ولا رأسي دخل. تواريت خلف أكبر وأنا متصلب مضطرب وعالقٌ متحسّر.

فجأة، انتبه أبي إلى أنّي وقفت متجمّدًا. تقدم وحين رآني في ورطة، ضرب على زر الجاكت الذي ربط بين الرأس والرقبة واليد فانفتح الزر.

ضحك أبي وأمر لنا بإحضار كأس من عصير البرقوق.

كان عصير البرقوق بمثابة ماء الحياة، بثّ فينا الروح من جديد.

كنا نطوي تلك الطريق كلها عائدين إلى البيت بأبدان حامية، نشتم رائحة حساء «عباسعلي» في «السويقة» ورائحة حساء «الحليم» والزيت والقرفة وآلاف الروائح الأخرى، وآخر ما نشتم روائح بالوعة آشورا.

أما حامل لواء حجاج الحمام سَحَرًا، فقد وصل إلى البيت وكمّ معطفه يتأرجح.

كانت هناك أمنا وقرقرة الغلاّية والشاي الحلو. أما نحن فلم نستطع تحريك رقابنا من شدة الألم.

الفصل 12

گلـــي ترقـــي (١٩٣٩ - ...)

كاتبة وأديبة إيرانية تقيم بفرنسا. ولدت بطهران في العام ١٩٣٩م. بعد أن أكملت دراستها الثانوية سنة ١٩٥٤م رحلت إلى أمريكا. درست هناك الفلسفة. وبعد رجوعها إلى بلادها تفرغت للتدريس في كلية الفنون الجميلة وللكتابة القصصية. لكن بعد قيام الثورة الإسلامية رحلت إلى فرنسا وتابعت من هناك فعالياتها الأدبية.

فازت گلي ترقي بجوائز قيمة في مسيرتها الإبداعية، من بين تلك الجوائز جائزة بيتا في دورتها الثانية خلال العام ٢٠٠٩م. كما اختيرت قصتها «سيدة روحي الكبيرة» المترجمة في هذه المجموعة، أحسن قصة في فرنسا لعام ١٩٨٥م.

أصدرت هذه الكاتبة روايتين: «نوم شتوي» (١٩٧٥م)، «حادثة» (٢٠١٤م). لكن مجاميعها القصصية أكثر عددًا: «ما أَعذَبَنِي» (١٩٦٩م)، ذكريات متفرقة (١٩٩٤م)، «مكان آخر» (٢٠٠١م)، «فرصة ثانية» (٢٠١٤م).

عنوان القصة في الأصل الفارسي (بزرگ بانوى روح من)، وهي مأخوذة من مجموعة (جايى ديگر) [مكان آخر]، ص155، منشورات نيلوفر ٢٠٠٥م.

سيدة روحي الكبيرة

إنها كاشان! وصلتُ منهكًا، أغوص في الصحراء. غريبٌ أتوجه إلى متاهة. الجو مفعم بالذرّات المبتلة اللاَّمرئية والروائح الأريجة، مليء بطقطقات مسلِّية

وحُنوّ كبير. الريح تفوح اخضرارًا، وتعبق برائحة الأعلاف الرطبة وبراعم الورود وكأن مشتلًا مرّ من السماء محمّلًا بأنفاس معطّرة.

سألته: «السيد حيدري، ما نصيبك من هذه الثورة؟».

كان يرتعش وقد جافى النوم عيونه خوفًا من القحط والنهب. كان قد أوصد أبواب بيته، ويتابع ما يجري في الزقاق من شقوق النوافذ.

قالت زوجتي: «يساورني الشك في صاحب البيت، أظنه على صلة بمعارضي الثورة».

المدينة ملتهبة ومستيقظة والنوافذ تفتح وتغلق. تُسمع طلقات نارية متفرقة وهمهمات خرساء؛ مكان ما يحترق وأفراد مجهولون يطارد بعضهم بعضًا في الأزقة المظلمة. والدي غير مكترث لما يجري في الأنحاء، يقول: «إن هذا أيضًا سينتهي» ويبحث في كل مكان عن زبيب بجودة عالية لخمره المنزلي.

بعيدًا عن صخب الناس، سماء كاشان تلمع مثل منبع ماء زلال، والبريَّة مدثّرة ببوتقات الحرمل والشقائق الحمراء حتى سفوح الروابي. والجبال، بعريها ويقظتها، تحاكي جسم امرأة أساطيرية، والصحراء حاضرة حضور الأم.

هناك بعيدًا، في انحناءة طريق مترب، جلست امرأة على التراب. وهنا، على مقربة مني، في ظل شجرة الرمّان، وقف رجل للصلاة.

نبتت بجانب قدمي أصغر وردة في الدنيا.

تساءلت: «سيدي الشاعر، أين هو ضميرك التاريخي؟».

قال: «أنا لم أستفق بعد من حيرة هذه الوردة».

أَغلقت أبواب الجامعة. طلاّبي يهتفون: «الموت للفلسفة، الموت للرجعية»، ويضربون على الجدران بقبضات أياديهم الشابة. يحاكمون الأساتذة غيابيًا ويبحثون في ردهات الكلية عن مفهوم الحرية.

يسألونني: «أستاذ، ما معنى وحدة الكلمة؟ هل المادة هي الأصل أم الفكرة؟ هل التاريخ حقيقة أم الله؟».

زوجتي مؤمنة بجهاد البناء. وهبت أساورها الفضية للمسجد المتواجد بناصية الزقاق. وخلال حملة تنظيف المدينة كنست الزقاق المترب في الحي.

تقول وهي تشاهد، بحيرة وذعر، صور المعدومين في الجريدة: «الانتقام جائز في الإسلام». في الليل، تسرع إلى دروس الوعظ والإرشاد والأحكام الدينية للسيدات، وهي مقتنعة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قصّت أظافرها الطويلة الحمراء ومحت ظل أجفانها الأخضر. تغطي رأسها بوشاح أسود وتحترس بشدة من أن يرى أحدٌ صيوان أذنيها. منتشية ولا قرار لها، وقلبها يخفق من شدة الإيمان. تجلس بجانبي وترنو إليّ وتحكي لي عن الكفر والمعصية، عن وساوس الشيطان ولزوم القصاص.

تسألني: «ألا تؤمن بالجنة والنار؟».

تمسك يدي بحنان وتنظر إليّ بعطف أموي. في الغالب، تقضي الليالي مستيقظة تتمتم بدعاء. نفَسها رطبٌ وبشرتها تعبق برائحة ماء الورد. كلما نظرتُ إليها أجدها تبتسم وعيناها مسمّرتان في السماء من خلف النافذة.

تقول: «أنصت، ألا تسمع صوت غناء الملائكة؟».

«كلا، لا أسمع».

أحشر رأسي تحت المخدة استجداء للنوم.

ترتفع أصوات طلقات نارية متفرقة وهتافات «الله أكبر» من السطوح المجاورة.

يقول الرفقاء: «يجب الذهاب».

يقول الرفقاء: «يجب البقاء والحرب».

الرفقاء يفكرون بتسرع في تأسيس جريدة وحزب.

أترع السيد حيدري قبو منزله بالدقيق والأرز والنفط وأحضر إلى بيتنا سجاجيده الحريرية. سحب أمواله من البنك ووضع قِطَعه الذهبية في كيس علّقه على رقبته.

السيد حيدري يخاف من مناهضي الثورة، لذلك قرّر الهجرة، لكنه يخاف أيضًا من فكرة الوحدة في بلاد الغربة.

الجامعة تعجّ بالفوضى والازدحام، هناك من يلقي خطابًا وسط الجموع التي ترتفع أصواتها بالصلوات على النبي. عند جدار الجامعة يباع البنجر المحلّى والبطاطا المشوية، وصور الإمام معلّقة على الأشجار. تعترض طريقي عجوز وتريني صورة ولدها الشهيد. تشهق بكاء وهي تبحث عن الآية الإلهية الغائبة. ممر الراجلين مملوء بالكتب المذهبية وبنطلونات الجين والأحذية الكتانية. في الناحية الأخرى، أحد أفراد الميلشيا يدرّب مجموعة على كيفية استخدام رشاش عوزي، فيما افترش رجل وامرأة وأبناؤهما سفرة تحت الأشجار وانشغلوا بتقسيم الطعام.

يوقفني تلميذ ويسألني عن أحوالي وأنا لا أعرفه؛ سوّد وجهه ولفّ وشاحًا على رأسه وقفاه. أظنه شاب عربي قدم من فلسطين. ظفر برشاش وشرع يطلق طلقات في الهواء. النسوة يصرخن ويرقدن أرضًا خلف الأشجار.

أحدهم يقرع الباب. إنه منتصف الليل. تهبّ زوجتي من مكانها وهي تصارع الفزع وتداريه. والدي يواري زجاجات خمره على وجه السرعة. إنه السيد حيدري جلب لنا الحليب المجفف ومعلب الجبن وزيت السمك الهندي. كانت أنفاسه متسارعة.

يقول: «انتهى الوقود، ولا وجود للدقيق، وحلّ الوباء وظهر الجدري. وعما قريب سيأكل بعضهم بعضًا».

تسخر زوجتي من هذا الكلام وتعتقد أن الناس المؤمنين سوف يحضرون لنا الطعام. يضرب ولدي أكياس الدقيق حانقًا ويقول إن الثورة الحقيقية في الطريق. ابني موقنٌ بانتصار الحشود المضطهَدة. خلال النهار، يذهب إلى المصانع ولا يعرف كيف يربط صداقات مع العمال. يرتدي ثيابًا قذرة وينتشي فخرًا بحذائه الموحل. ابني يعشق الفقر وينعم بعقدة التسوّل.

صديقي الرسّام كان من أهالي مدينة كاشان. دعاني لزيارته. كنت أرجو الله أن أنهض وأنطلق. زوجتي كانت تصلي. لقد تعلّمتْ حديثًا لكنها لم تكن تحفظ. ألصقت ورقة على الجدار وبدأت تقرأ منها.

كان صاحب البيت في الفناء. لمّا رآني طار من مكانه. كان يرتعش وهو ينتظر شخصًا. نظر إلى محفظتي اليدوية.

سألني: «هل أنت هارب؟».

قلت: «كلا».

أردف سؤالًا آخر: «هل اسمك موجود بالقائمة؟».

أومأت برأسي.

قال: «سيقبضون عليّ، اليوم أو غدًا. وأنت أيضًا سيقبضون عليك. سيقبضون على الجميع».

كان أبي مستيقظًا. جلس بجانب النافذة وانهمك في تسوية أوتار قيثارته. كان إلى حد قريب يعلّم القيثارة، لكن تلامذته توقفوا عن المجيء. تلامذته ينشدون أناشيد الثورة. يزوره بين الفينة والأخرى مسيو آرداواز، صديقه القديم، فيتحدثان عن الماضي. لقد أقفل مسيو آرداواز حانته، وحوّل إحدى غرفه إلى حانوت يبيع فيها البقسماط وكومبوت الإجاص. مسيو آرداواز يخاف الامبريالية لذلك صوّت لصالح الجمهورية الإسلامية.

لقد جلدوا صاحب البيت عشرين جلدة.

ابني معارض للنظام الرأسمالي ويقول إن صاحب البيت يجب أن يعدم.

كم الصحراء بعيدة عن هذه الأحاديث وكم هي صابرة وقنوعة! هناك بعيدًا، ترقد قرية هادئة في حضن الجبل في كنف الأشجار الخضراء، ويشقشق طائر من بعيد. أشعر بخفة، خفة هندباء عائمة في الفضاء. أترنم في نفسي:

يا لرائحة العلف التي تفوح من البستان!

أنا في هذه القرية، أفتّش عن شيء،

عن حلم..ربما

عن نور، عن رمل، عن ابتسامة.

هناك، في الأمام، ثمة مستنقع كبير بجواره حجرة طينية بلا باب ولا قوام. ماء آسن مليء بالطحالب العائمة. رجل يعبر مع حماره فيلقي التحية. تفوح من بردعته رائحة الخبز الطري ومن جسمه رائحة الحطب المحترق.

وقفتِ الآلاف المؤلفة من الناس لإقامة صلاة الجماعة. يسجد آلاف الألوف؛ النساء متلفِّعات بشوادير سوداء وقد ملأن الأزقة. ورجل يافع استند إلى جدار بالقرب مني، وهو يرتعش. عيناه مطبقتان ودموعه رقراقة.

صديقي الشاعر طريح الفراش. يقولون إنه صار مجنونًا يخبط نفسه على الجدران. سوف أذهب لزيارته. قلبي منقبض وثقيل، إنه نائم وشبه صاح.

زوجته لا تدرك شيئًا. زوجته محتارة مبهوتة. ما أن رأتني حتى أجهشت بكاء. قالت: «انتظر حتى يستيقظ، ربما أسرّ إليك بشيء. إنه يتكلم مع أشخاص وهميين. يصلي في اليوم عشرين ركعة ويعلن توبته باستمرار. عند مخايل الغروب يرتقي السطح فيذرع الجيران بيوتهم من تكبيراته ويهرعون إلى الزقاق. وفي الليل تنتابه نوبة بكاء، ولا يطرق النوم جفنيه خشية من حضور الله».

لا أكاد أصدق. كان إنسانًا هادئًا وخجولًا، لم يكن يتحدث بلسان حاله بل بلسان فؤاده. كان ينشد شعرًا، شعرًا بسيطًا وجميلًا. في ليالي الثورة، كان يزورنا في البيت فيقعد دون أن ينبس ببنت شفة. فكنا، كلانا، نرهف السمع في سكون لهتافات الله أكبر، ولهمهمات المدينة الغريبة، ولأصوات طلقات نارية متفرقة في الأزقة والدروب البعيدة. كان يبدو أن النار تلتهم مكانًا ما إذ كانت النوافذ تفتح، ويندفع الشيوخ والنساء والأطفال إلى الخارج. كان صوت مرور سيارات الإطفاء والإسعاف مسموعًا. أما صاحبي الشاعر فكان طوال هذه المدة سادرًا في صمت لا تكاد تسمع له همسًا.

لا تزال تفوح من يدي رائحة دم طري، دم طري ساخن، دم فتى يافع كان بعمر ولدي. كان طافحًا بالحماسة متأججًا قلقًا، يجتر أنفاسه بصعوبة. يلوّح بقبضة يده الصغيرة متوعدًا الجنود. أضعتُه في بداية منعطف الشارع. كان ثمة مكان يحترق، وكان الشارع مملوءًا بالدخان والغبار الخانق. كانت النساء يركضن والرجال يقفلون على عجل أبواب حوانيتهم. لقد بدأ الرصاص يلعلع.

كان صديقي الشاعر بجانبي، يرتعد ويكلّم نفسه. كان للموت وجه مألوف، يتجول في المدينة مثل امرأة غاوية ومغرية. وقعت عيناي على الفتى الغريب. كان منحنيًا ويداه تطوقان بدن شجرة. أقمته، لقد كان ثقيلًا ونفَسه منقطعًا. أصابت الرصاصة وسط صدره. ناديت على عابر واعترضت طريق رجل ثم قرعت باب منزل. كان فتاي المجهول منطفئًا وصديقي الشاعر لا ينبس بكلمة، بل وقف إلى جانبي يتأمل «الموت» بعينين مسحورتين.

الجو يميل إلى الظلمة. أين أنا؟ لا أحد من حولي. لقد تهت. تحت أقدامي صحراء صامتة تزحف نحو المناطق المظلمة والمجهولة. قلبي يدق والريح مخاطبي الوحيد. أسير قُدُمًا بلا هدف ولا وجهة. قريبًا سوف يحلّ الليل. خوف غامض ينخر كياني ويمسّد على مؤخرة رأسي بيده الباردة. أسرعُ الخطو فيضرب حذائي رجلي. أبحث عن شجرة أو أثر قرية أو إنسان. أدور ثم انعطف ناحية اليسار. ترقبني الصحراء وتتبدّد في الفضاء همهمة خرساء. تقع عيني على طريق ضيق متعرّج يرشدني إلى مكان مجهول كأنه إشارة سحرية. منهك وظمآن، أجرجر أقدامي، وأرمي بنفسي إلى الأمام. تارة، ينقطع الطريق الطويل المتعرّج، ثم يتواصل على بعد مسافة كبيرة. أحدّث نفسي بأني لن أصل أبدًا، لكن لا مناص من السير فأملي الوحيد هو هذا الطريق المعوج الضيق.

هل أنا أحلم؟

أتوقف فلا أكاد أصدّق. قبالتي في قلب الصحراء في تلك البريّة الصامتة، ربضت في سكون جنّةٌ خضراء في كنف جدار أبيض، كأنه حلم فردوسي. ودعاني باب موارب إلى التقدم. اختلست النظر، لا أثر لأحد والبستان خال ووحيد. يمتد على حاشية الجدران صفَّان من الصفصاف الطويل، وتنتصب أربع أشجار سرو في قلب أربعة بساتين صغيرة مكسوّة بالشقائق البرية والأزهار المجهولة. يتوسّط البستان مستنقع كبير أزرق بلوري مترع بماء السماء. يغطي صخورَ الأنحاء غبارٌ رهيف. لا أثر لقدم ولا ليد، ولا أمارة عن

لحظة مضطربة، ولا ذكرى لرسم مخدوش. في الجهة الشمالية منه، تستقر شرفة واسعة على أوج درجات إسمنتية، وفي الأعلى يتربّع بيت أبيض ملكوتي موليًا ظهره للسماء. شفّاف وخفيف الحمل لدرجة يماثل فيها صورة حلم أو خيال، صُوّرت في الفضاء. وكأنه تجلٍّ للحضرة القدسية أو كأنه آية منوّرة نازلة من السماء.

أتقدم بتؤدة واقتصاد وبخطى محتاطة ومترددة. أخشى أن يختفي لو صرفت ناظري عنه، أو ينهار لو تنفّست بعمق.

أجلس على حافة المستنقع فأغسل وجهي منتشيًا. يا لها من لذة! وجه البيت يتلألأ في عمق الماء وتجري الأشجار الخضراء على سطحه المرمري. أمعن النظر، لا أحد في هذه الأنحاء. لقد سقط البيت الأبيض من الذاكرة في أوج صخب التاريخ وازدحام الحوادث.

رائحة الماء الغضّ مغرية. أخلع ملابسي وأتزحلق في عمق الماء. أفتح عينيّ فإذا بزرقة السماء تبدو من غور المستنقع أكثر رحابة، وكأني أطفو وسط المجرّات. يطهّر نَفَس الماء تراكمات غبار آلاف السنين من روحي فتقشعرّ بشرًا. كأن يدًا لا مرئية تغسلني في منبع ماء الحياة. أتمدّد فوق الماء. تهاوت الشمس إلى ما تحت حزام الجدار، واشرأبت أعناق أشجار السرو في عتمة الغروب الوضّاحة. تقع عيناي مجددًا على البيت فيخفق قلبي. كم هو بسيط ومن دون تكلّف، كم هو لطيف ومحترم، وكم هو طاهر ونقي وكأنه جاء من مغسل مبارك! يذكّرني بشخص معروف، شخص قريب لكنه منسيّ، شخص قابع في بداية حلم جميل، في استهلال خواطر قديمة. يذكّرني بامرأة أثيرية، امرأة بجسم سمائي وعينين من جنس الماء، شبيهة بصورة عرس أمي، بتلك النظرة البكر الحيي وبزهرة البرسيم رباعية الأوراق بين الأصابع، وامرأة أبعد منها، امرأة أبدية منسابة في الزمان.

أخرج فتأخذني الرعشة. غروب الصحراء منعش ومهضوم. أرتدي ملابسي وآخذ حذائي في يدي ثم أنطلق حافي القدمين. أعدُّ اثنتي عشرة درجة. كان هناك أحد يصلي في الشرفة وترك مهرة صلاته27. سطح الشرفة مغطى بسجّاد أبيض مزركش بأزهار صغيرة زرقاء. أدلف إلى الداخل؛ صحن متألق تحيط به جدران بسيطة تخلو من رسومات وبه مصطبّات للجلوس وللمشاهدة. أركان الجدران الملتصقة بالطاق مزيّنة بورود جبسية، أما النقوش الزجاجية المحيطة بالنوافذ فهي عفيفة ومتواضعة. في جانبي الصحن، بابان مواربان يفضيان إلى حجرة أخرى، ويطلان على خلوة مخفية. وردهات متداخلة وسلالم ملتوية وشبه مظلمة تدعوني إليها.

حينما وصلت إلى أعلى كان نفسي قد انقطع. معالم العالم بادية من هذا المكان؛ السماء على بعد قدم والصحراء ممتدة حتى منتهى الأفق. جلست لوقت طويل. أيُّ وقت من الزمان الآن؟ أين أنا؟ يغالبني النوم. نوم جميل يداعب جفوني لكنه لا يصل إلى دماغي. النجوم كلها بارزة، واحدة واحدة. نظراتي عائمة في الفضاء وأفكاري، كما فقاعات الماء المعروفة، ليس لها شكل ثابت ومعين.

لا أحسُّ بأطرافي. فقدَ بدني ثقله الجسماني واختلطت خطوط قوامي. كأني امتداد للشرفة والأشجار والصحراء، وكأن عينيّ معلقتان بالنجوم. كم أنا بعيد عن كل الناس وكل الأشياء، عن الارتباط الهندسي للأجسام وتناسب الأشياء العقلاني، عن عدّ الدقائق المتكرر وضرب الأعداد المطلق، عن العلاقات المزيّنة والأفكار المدوّنة، عن لوح القانون العظيم وكتاب الأخلاق الضخم، عن آداب العيش الصحيحة وكيفية الكينونة! ما أبعدني عن تحكّم المادة وأصالة التاريخ ومشروعية الأفكار الثابتة، عن أحكام الحيض والنفاس وتجلي العقل الأول والعالم المثالي. ما أشد بعدي عن جدال الشرق والغرب والمستكبر والمستضعف، وعن مراسيم الطهارة والتكفين والدفن، وعن ذاك الذي كان

يقول إن الله قد مات، وعن ذاك الذي كان مذعورًا من الموت وذاك الذي كان ينتظر حصول معجزة!

حينما استيقظت كان السحر قد حان. أتحسس ما حواليّ دائخًا حائرًا. أهبُّ واقفًا. أشعر بالجوع والتحسّن. أحس بأثقالي قد خفّت وغادرت كاهلي. يهبُّ نسيم عليل. يصدح ديك من بعيد. والقرية الصغيرة، هناك في الأسفل في سفح الجبل، مستيقظة. أنتعل حذائي فيتعالى وقع الأقدام. أنزل فألفي عجوزًا يتوضأ على حافة الحوض. لحيته الكثّة مشتعلة شيبًا. أقرأ عليه السلام فيهزّ رأسه وهو يتمتم بدعاء.

آثار قدميّ ظلت مرتسمة على درجات السلم. وصلتُ إلى الباب فتوقفت والتفتُّ كي أشاهد ما ورائي. يبدو البيت، وهو غارق في ظلمة السحر الوضّاءة، كاملًا وواقعيًا حدّ ارتجاف مهجة قلبي. إنه يقول لي شيئًا، شيئًا سالمًا وجميلًا، شيئًا لا يعبّر عنه اللسان، أفهمه فأحس بالهدوء والطمأنينة تستقر تحت جلدي.

لم تعد طريق العودة مجهولة وموحشة بالنسبة لي. الصحراء هادئة وصامتة وخالية من الوساوس المرعبة. حين وصلت إلى البريّة مع حدود الاخضرار سلكت طريقًا فرعيًا واجتزت وسط المزارع. على مقربة من الطريق توقفت شاحنة فأقلّتني. شاب يافع بلحية سوداء وبشرة متلفعة بلهيب الشمس.

ألصق بزجاجات مركبته عشرات الصور لآية الله. نزلت أمام مقهى قريب من المدينة، وقتها فقط أحسست كم أنا جائع. لقد بزغ الصباح، صباح الصيف الحار والأبلج.

رجعت إلى غرفتي في فندق المدينة. تلقيت من طهران بضع مكالمات، وزارني صديقي الذي تواعدت معه الليلة السابقة ثم رجع. ترك لي رسالة، لقد طرأ أمر مهم. يجب أن أعود على وجه السرعة. لقد اعتصم طلاّبي

وحوصر الأساتذة. جمعت أشيائي التافهة وأخذت محفظتي اليدوية وانطلقت. كانت الساحة في وسط المدينة تعجّ بالازدحام والفوضى. الشاحنات ملأى بالناس، يتنقلون من قرية إلى أخرى ويهتفون بالشعارات وينثرون الصلوات. ذبحوا خروفًا وخضّبوا خلفيات الشاحنات بدمه. لبس الشباب السواد وأخذوا يلوّحون بقبضاتهم في الهواء.

الدكاكين مقفلة والمدينة شبه معطّلة. رجل هرم يطرق زجاج سيارتي وهو يسعل. يمسك في يده ورقًا لا يستطيع قراءته. عيناه لا تبصران. أقرأ له ما كتب في الورقة، عنوان منزل يقع في قرية نائية، في منتهى منحدر خلف أشجار الدّلب.

الطريق مزدحم ومضطرب ومملوء بالشاحنات والعربات وسيارات النقل والبغال. لمّا وصلت إلى مدينة قم وجدت الطريق مقطوعًا. إنهم ينقلون الموتى. انتظرت بينما الحشود تصلّي على النبي، والنساء المتلفعات بالسواد يتحركن كتلة واحدة. تعلّق طفل متسوّل بترس سيارتي. الجو مفعم بالغبار والدخان ويفوح برائحة البنزين والنفط. أشعر بالحرّ فأنضح عرقًا، نفَسي مكتوم. أنتحي جانبًا في انتظار فتح الطريق.

أوقفوني قرب الساحة وطلبوا أوراق السيارة وفتشوا صندوقها. كانت جريدة ملقاة على المقعد الخلفي، تصفحوها ثم صادروها. شعرت بدوار في رأسي فمضغت عقب سيجارتي وبصقت ثم أطلقت العنان للكلاكسون والصراخ. تأتي امرأة وتشرع في الضرب على زجاج مقدمة السيارة وهي تسب وتعلن. طفلها يبكي.

حينما وصلت إلى الطريق الرئيسي أسرعت. كانت الشاحنات تأتي من الجهة المقابلة بصورة مثيرة لا ترحم. إذا وصلتُ إلى طهران حيًا فستكون معجزة. أحسست بألم في أسفل بلعومي، وفمي كان قد جفّ. أنزلت زجاج النافذة

استجداء للهواء وطلبًا لقطرة مطر؛ صحراء وتراب وجبال صخرية وأفران آجور على امتداد البصر.

ينتظرني اجتماع صباح الغد الباكر. لم أكمل المقالة التي وعدت بكتابتها، وما أن أصل يجب أن أعرّج على مجلس التأبين الذي يقام لعم صديقي.

سيارة خلفي كانت تطلق البوق، تريد أن أفسح لها المجال وهي غير مدركة أن الطريق قدّامي مقطوع ولا يمكنني التنحي جانبًا. أطلقتِ البوق مرة ثانية، ثم مرات متتالية وبشكل متقطع وأكثر قوة مع التهديد والسب واللعن. حدثتني نفسي بأن أنزل وأصفع السائق، وددت لو ترجّلت كي آخذ بتلابيب أحد وأرجرجه. كان الفضاء مملوءًا برائحة وقود السيارات والدخان، والسماء مغلقة والأفق قاتمًا مثل القير. جثمتْ فوق رأسي سحبٌ إسمنتية ثقيلة، وكان الجو غليظًا يتصادم مع نظراتي، وقلبي منقبضًا وذهني مشغولًا بالتفكير في قادم الأيام المضطربة. وفجأة تلوح صورة البيت من تحت رماد الأفق، من قلب المنفذ الإلهي كأنها هبة من الجنة، طاهرة معطّرة، وتدنو مني رويدًا رويدًا. أرى أنها هناك، وأنفاسها الفردوسية متوارية خلف الأشياء، وأعلم أنها بعد ذلك سوف تأتي إليّ بلا خبر. أعلم أنها سوف تكون معي في أوقات الغروب القائظة المملّة، في الأيام الصاخبة ودقائق التاريخ الهائجة، في ليالي اليأس الحالكة وفي زمن الموت، وسوف تهدِّئ من روع قلبي. هي هناك على الدوام، هي الكاملة، هي سيدة روحي المبجّلة.

27 - قرص مصنوع من تربة كربلاء يضعه عليه الشيعة جبهتهم أثناء السجود.

الفصل 13

شهرنوش پارسي پور (١٩٤٦-...)

قاصة ومترجمة إيرانية. ولدت بطهران في العام ١٩٤٦م. تابعت دراستها في تخصص العلوم الاجتماعية بجامعة طهران ثم انتقلت إلى السوربون بفرنسا لدراسة اللغة الصينية وثقافتها. عادت إلى إيران في العام ١٩٨٠م.

بدأت الكتابة في سن الثالثة عشرة كما عملت معدة للبرامج التلفزيونية في التلفزيون الوطني. تعرضت للاعتقال في أكثر من مناسبة ما جعلها تغادر إلى أمريكا. أول رواية صدرت لها تحمل عنوان «الكلب والشتاء الطويل» (١٩٨٤م). وفي العام ١٩٨٩م أصدرت رواية «طوبا ومعنى الليل». من مجاميعها القصصية الناجحة: «قلادات بلورية» (١٩٧٧م)، و«تجارب حرة» (١٩٧٨م)، و«نساء بلا رجال» (١٩٨٩م).

ترجمت أعمالها إلى الكثير من اللغات في العالم، كما حازت على جوائز قيمة كجائزة بيتا في العام ٢٠١٦م.

عنوان القصة في الأصل الفارسي (بهار آبى كاتماندو)، وهي مأخوذة من مجموعة (آويزه هاى بلور) [قلادات بلورية]، ص٥، منشورات رز ١٩٧٧م.

ربيع كتماندو الأزرق

تنفتح نافذة غرفتي على منظر بستان قديم وكبير به قناة مائية، بساطه أخضر شاسع ملأى بأزهار الشقائق والبتونيا. أحيانًا، أرى صاحب البستان يجزّ الأعشاب الضارة، ويبدو من بعيد شيخًا هرمًا، يرتدي ملابس زرقاء بالكامل ويتتبع الأزهار بيديه المدفونتين في قفازات. يقصّ أعلى شجيرات البَقَس

ويقتلع الطفيليات ويسقي العشب. حين يكمل عمله، يخلع قفازاته ثم يجلس على أريكة مثبتة وسط ممر البستان المبلّط بالرمل، متطلعًا إلى أزهار النيلوفر الغاطسة في المسبح.

«غرفتي جميلة جدًا»، بها نافذة كبيرة مُشرعة على البستان، وأخرى تطل على زقاق مزدحم يعجّ بالمارّة، تظل أشعة الشمس في ضيافة فسيفساء أرضيته حتى وقت الزوال. لا أدري لمَ يسكنني هذا الاعتقاد البليد بأني لو جلست بمحاذاة النافذة المُطلّة على الزقاق سوف أستطيع أن أرى العشّاق، مثنى، وهم يشبّكون أيديهم ويعبرون ممرات الراجلين. بالإمكان طبعًا نعت الناس بالعشاق، حدسًا وتخمينًا. الناس هنا في هذه الأزقة المكتظّة لا يُقبِّل بعضهم بعضًا ولا يمسكون بأيدي بعضهم البعض. قد يقومون بهذه الأفعال في دروب غميسة جدًا، أما زقاقنا فعريض تمر منه السيارات، ولا مجال فيه لهذه الأفعال. هذا التصور في مجمله غبي، لكنني كنت أظن دائمًا لو أني ابتعدت عن بيتنا بشارعين فسأجد جميع الناس عشّاقًا.

«غرفتي جميلة جدًا»، جدرانها زرقاء وصورة البستان منعكسة في مرآتها، وسقف الغرفة ناصع البياض. أملك أربعة ملائكة جبسية في أركان السقف الأربعة، سقط حرف أنف إحداهن. ملائكة وديعة وبدينة بأعين بلا بؤبؤ. قرب نافذة البستان وضعتُ طاولة وكرسيًا، أتناول هناك وجبتي الغذاء والعشاء. أما فراش نومي فيوجد في الزاوية الشمالية الشرقية، وعلى امتداد ذات النافدة المشرفة على الزقاق ثمة جسد رجل مطروح على فراشي بتقاسيم ملكية وجلد مصفرّ من الموت اصفرار صمغ الشجر. منذ أن وعيتُ وهذا الرجل ميت. له قامة سامقة وشوارب موقرة وقوام رشيق. يطوّق رأسَه تاجٌ نحاسي ذو حواف على شاكلة حوافي قطعة عتيقة، وذو زينة مَعَابة، يغطي التاجُ نصفَ شعره الأشيب وطرفًا من جبهته الصفراء العريضة. تستر جسدَه ملابس حريرية وقباء من المُخمَل الأحمر. طُرزت حاشية القباء بخيط أبيض، ونقوشه شبيهة برسم النيلوفر. الشخص الذي خاط القباء عديم الذوق، أزهار النيلوفر

ليست متناسقة وخيوط حرير الحاشية الأبيض برزت في أكثر من موضع. يتختّم الرجل الميت بخاتم من فضة حجره الفيروزي من الحجم الكبير. حلقة الخاتم صارت مع مرور الوقت سوداء، وما تحت أظافر الرَّجُل الطويلة نسبيًا مليء بالقذارة والدَّرن. وتغزو براجمَ أصابعه تجاعيدُ كثيرة. ملامح وجهه تشي بأنه خمسيني، لكن يديه هرمتان جدًا.

عندما أستيقظ من النوم في الصباح أمارس الرياضة، أقف قبالة النافذة وأقوم بالتمارين الرياضية؛ حركات خفيفة وحرة. بعد ذلك أتنفس بعمق، وحين أخرج من تحت رشاشة الماء يكون نشش الغلاّية قد انتشر في جميع أركان الغرفة، آنئذ أحتسي الشاي على الطاولة قرب النافذة وأنا أتفرّج على أزهار البستان، وأحيانًا أشاهد الصراصير وهي تتسلق أرجل السرير ثم تتلاشى مختفية في ثنايا قباء الرجل المخملي.

في تلك الأوقات كنت أنام على السرير بجانب الرجل، ولم أكن أستطيع أبدًا تغيير لحاف الفراش لأن تحريك جسد الرجل كان عسيرًا للغاية، لاسيما وأنه كان يتمتع بهيبة لا يجرؤ معها المرء على لمسه، لذلك كنت أرغم على لحف الجزء الخالي من الفراش فقط. وأحيانًا في منتصف الليل، كنت أطير فزعًا من النوم لأني كنت أحلم بأني اقتربت من الرجل ووقعت يداي على صدره، وكان يُخيّل إليّ أن الرجل يرمق السقف بعينيه المفتوحتين. والأنكى من كل ذلك الصراصير التي كانت تخطئ طريقها تارة فتخرج من تحت قباء الرجل إلى الجهة التي أنام فيها، ولمّا تتحرك يدي أو أدخل النفس إلى رئتي يجمد الصرصور في مكانه للحظة، ثم لا يلبث أن يفر مسرعًا، لكن آثار أرجله تبقى محسوسة على رجلي لفترات طويلة. كانت قبيحة جدًا.

اشتريت كرسيًا وثيرًا غلافه من جلد، ووضعته بجانب النافذة المطلة على البستان ملتصقًا بالطاولة. وصرت أنام هناك منذ فترة.

كل صباح أرمي الحَبَّ لطيور الكناري وأملأ وعاء مائها، وأفتّت الخبز للحمائم. أكنس الغرفة وأزيل الغبار والأتربة حتى تصير متلألئة من النظافة. لكن الصراصير ليس لها حل، عددها يزداد يومًا بعد يوم. اقتنيت قليلًا من السُّم وبثثته بحذر تحت القباء المخملي للرجل، ولكن أيضًا من دون فائدة.

كل هذه الأشغال تستمر إلى حين موعد الغذاء، ثم أجلس مجددًا إلى الطاولة بجانب نافذة البستان، ومع تناول الطعام ظهرًا أنظر إلى البستان الذي يبدو أن حرارته قد اشتدت. وبدءًا من فترة ما بعد الزوال يحين وقت الفراغ والبطالة. فأستسلم حينًا لإغفاءة، وحينًا آخر أجوب الغرفة على رؤوس أصابع قدمي، وتارة أحيك غزلي، وتارة أخرى أُرتِّق فتوق قباء ذلك الرجل.

في تلك الأوقات أثناء العصاري، كان يَقْدُم الصبيُّ، بائع الجرائد، ويدقُّ الجرس. كنت أعرف دقات جرسه: رنتان قصيرتان وواحدة طويلة. فأقوم من فوري وأرمي له بالسلة فيضع بداخلها جريدة ثم أسأله:

- هل تم إلقاء القبض على القتلة؟

يجيب:

- قُبض على أحدهم ولم يعثروا بعدُ على البقية.

أنا والصبي بائع الجرائد نمجِّد القتلة، لكننا لا نكشف ذلك لبعضنا البعض أبدًا. لأنه يقال إن الإفصاح أمر غير محمود.

حقًا إن الجريدة شيء جيد للغاية، ويمكن القول إنه لو لم يكن للجريدة وجود لما كان للصبي بائع الجرائد وجود أيضًا. ولو لم يكن للصبي بائع الجرائد وجود لم يكن للدنيا وجود أيضًا. ما أدراني أنا بما يحصل! أحيانًا أرى سيارات تعبر الزقاق مطلقة العنان لأبواقها أو أبصر أناسًا يغدون ويروحون فرادى ولا يمكن معرفة هل هم عشّاق أم لا؟ إذًا كيف يمكن معرفة هل توجد دنيا أم لا؟ لكن

الجريدة مليئة بالناس؛ الناس الذين يشترون الأسهم في البورصة. الناس الذين يتبادلون القُبل أمام الكاميرات وتنشر صورهم في الجريدة. الناس الذين يذهبون للحرب. أنا أسافر مع الجريدة إلى هنا وهناك. إلى الشيلي وبوليفيا، أفترش الجريدة في غابات بوليفيا وأنام عليها كي أتقي لسعة أو شيئًا آخر، وأجيل عيوني، فوق رأسي، على الأشجار الخضراء التي ترشح عرقًا من شدة الحرّ، ثم تسيح عصارة صفراء محمومة تنساب من جذوعها وتستحيل بنّية اللون عند دنوها من الأرض. أمسك الجريدة في يدي وأسبح في قناة السويس وأحترس من أن تصيبني رصاصة. وفي سيبيريا أمارس رياضة التزلج على الجليد. وفي الفيتنام أضمد جروح الجرحى وأشدّها بالجريدة.

الجريدة بهذه الصورة. أحيانًا أتحدث مع الصبي قليلًا قبل أن أشتري الجريدة. أتذكر أني سألته ذات يوم من أواخر فصل الربيع:

- ما الأخبار في السوق؟

- لقد وصل الكرز.

- هل تشتري لي بعضًا منه؟

وألقيت له بالنقود. اشترى الصبي كيس كرز وأرسله إليّ عبر السلة. ذات مرة خطرت ببالي فكرة فقلت له:

- هل تصعد لتناول الكرز؟

قصد الصبي الباب فسحبت حبله ثم نظفت الكرز بشوق ولهفة. ومع اقتراب وقع أقدام الصبي كانت حركاتي تزداد سرعة وأزيز الغلاّية يشتد ويشتد. بعد ذلك لمحتُ من ثنايا الباب الموارب ملامح الصبي وقد اعتراه الخجل، فهرعت لفتح الباب. طفق لمدة يرمقني بنظرات خجلة ومتطفِّلة بينما كنت أنا

أتفحصه وأتحسس حالته. مضت مدة طويلة لم أر آدميًا عن قرب. كان ذا وجه أحمر ريفي، ووجنتاه الممتلئتان لا تزالان متيبستين من صقيع الأيام القليلة الماضية. كان لون عينيه أخضر فاتحًا وشعره بنيًا، تتهدل على جبينه خصلات منه، شيء شبيه بملائكة أركان السقف مع فارق الدم الذي كان يموج من تحت جلده، وهو شيء يمكن فهمه ببساطة.

قلت له:

- تعال، ادخل واجلس هناك.

توجه ببراءة صوب الكرسي وقعد، وأخذ ينظر متحرّيًا ملائكة أركان السقف. قلت له:

- إنها تشبهك، أليس كذلك؟!

حينذاك استدار بوجهه الذي احمرّ خجلًا ناحية البستان ونظر إلى الأزهار. وضعت أمامه سلة الكرز، وجلست على هيئة بحيث لا تقع عيناه على الجثة ثم ضحكت في وجهه. كانت قطرات الماء تهمي من حبات الكرز ولونها الكبدي الأخّاذ يتلألأ تحت وميض العصر بشكل محيّر. في الأصل كل شيء كان محيّرًا، وكنت أتصور لو أنني ابتعدت عن البيت بزقاقين فمن المؤكد أن الجميع عشّاق.

قلت للصبي:

- ها، هل تحبّ القتلة؟

أومأ برأسه مؤكدًا.

فاندفعت بحماسة:

- وأنا أيضًا. لو أرادوا فأنا مستعدة كي أخفيهم في البيت. هل تعرفهم؟

رفع رأسه وهزه نافيًا فوقعت عيناه على جثة الرجل فتصلّب في مكانه، وفي دفعة واحدة بدا وكأن الغلاّية توقفت عن الأزّ.

قلت له:

- حسنٌ، ربما كان قاتلًا ذات يوم في أقدم العصور. ولو كنا أنا وأنت موجودين وقتها لكنا قد أحببناه.

قال الصبي وعيناه جامدتان عن أي حركة:

- سامحيني إذ دخلت بحذائي المترب...

- ليس مهمًا، تعال الآن وتناول الكرز.

ودفعت السلة ناحيته، ثم ذهبت صوب النافذة الصغيرة، لست أدري، لأبحث عن شيء ملعون، ولمّا عدت كان قد رحل.

حكيت هذا ليتضح لمَ أحيانًا تكتنف المرءَ أحاسيسُ اليأس والقنوط. تارة يكون الوضع هكذا فلا يزور المرء ضيفٌ ويظل أسيرًا للوحدة، وتارة أخرى لا يود المرء أن يزوره أحد، ويبقى مع ذلك منقبض الصدر. أحيانًا تنتابني هذه الحالة، فأظل لساعات طوال جالسة على الأريكة أتفرّج على إبهام قدمي وأنا أحركه، وأحيانًا أخرى أقضي ساعات طويلة في الغدو والرواح بين جنبات الغرفة. ويجب أن أعترف أن الجريدة أيضًا لا تسعفني في مثل هذه المواقف. حينما يسافر المرء إلى بلد فأول ما تراه عينه شارعًا طويلًا باسم ملك تلك البلاد، ثم ساحة ثم مجسّمًا وسط الساحة. وهكذا لا يرى الإنسان شيئًا جديدًا فيصير عرضة لنوازع الضيق والشدة. غروب ذات يوم، وبعد أن سافرت إلى كتماندو استبدت بي الهموم وتجرعت غصص الحزن والأسى. كنت قد قرأت في الليل شيئًا عن كتماندو وعن معابدها. كان الصحفي الذي كتب التقرير قد

أشار إلى أن كتماندو تتوفر على كذا معبد وعلى كذا وكذا. نمت في الليل وفي الصباح كنست الغرفة وتناولت وجبة الفطور ثم أعددت وجبة الغذاء وتناولتها. بعد ذلك حلّ مساء ممل ومقرف وظللت أتفرّج على إبهام قدمي ألف ساعة، وبين الفينة والأخرى أحرّكه. حينئذ وشيئًا فشيئًا حلَّ مكان الملل هلوسةٌ ونسج للخيالات، فسافرت إلى كتماندو. كانت كتماندو تقع في قمة جبل عال، وأحرف جدران معابدها تبدو من بعيد معانقة للسماء. كنت أنا وأناس آخرون نسلك طريقًا وعرًا بمشقة. نسي الصحفي أن يكتب كم يستغرق قطع الطريق للوصول إلى المدينة. نسي الصحفي بالمرة أن يكتب شيئًا عن الطريق التي كانت مبهمة ومعقدة وجبلية لأن كتماندو مدينة مرتمية في أحضان الجبال. كان الوقت ظهرًا والحرارة قد اشتدت والعرق يتفصد من كامل بدني، وكتماندو تبدو من بعيد كسراب بعيد المنال.

وصلنا أخيرًا إلى كتماندو. كانت ذات الشيء الذي كان بمقدورها أن تكون. ليس بوسعي التدقيق في التفاصيل، فأنا لا أحتمل القيام بهذا العمل خارج البيت. كان بكتماندو شارع طويل رئيسي سُمي باسم ملك كتماندو، وينتهي الشارع بساحة يتوسطها تمثال ملك كتماندو. لقد صدق الصحفي، المدينة ملأى بالمعابد. زرت بضعة منها ثم قصدت أحد المعابد ذي فناء مبلط بصخور ضخمة اشرأبت النباتات من بين ثناياها. كان له قبة زرقاء وعدة منارات، والناس من حوله تعلو وجوههم الغرابة. في الحقيقة لم أدخل أي معبد منها، كنت ألج فناءاتها فقط، كنت أتصور أنهم يتبخّرون بالعود داخل المعبد، وأن رجلًا قابعًا في ركن منه يتلو شيئًا، وربما أودع في أروقته بضعة جثامين. من المحتمل أن هذه الأشياء قد حدثت بينما كنت مستلقية على صخور الفناء، وقد نال التعب مني وتعرّقت الجريدة في يدي. فوق رأسي كانت تتواجد قبة سماء كتماندو الزرقاء في مسائها وسقف سجني والمعبد. كانت السماء شديدة الزرقة اخترقتها من ناحية الغرب خيوط ضياء الشمس، وبدا مزيج نور قبة المعبد الزرقاء وزرقة السماء وضياء الشمس وكأنه أشعة بيضاء تصل أحيانًا حتى كبد السماء، بينما لذت أنا بالنوم في كتماندو على ذات الهيئة.

الفصل 14

منيرو رواني پور (١٩٥٢-....)

كاتبة وقاصة إيرانية معاصرة. ولدت بمدينة بوشهر في الجنوب الإيراني. وبها أتمت تعليمها الابتدائي والثانوي. درست علم النفس بجامعة شيراز. ثم قصدت الولايات المتحدة لاستكمال دراستها في فرع علوم التربية.

شرعت رواني پور بالكتابة القصصية في العام ١٩٨١م. وأصدرت أول عمل لها، وهو مجموعة قصصية، تحت عنوان «كنيزو» (١٩٨٨م). بعد ذلك نشرت العديد من القصص والروايات. فازت قصتها «رعنا» من مجموعة «أنزلي» بجائزة هوشنگ گلشيري سنة ٢٠٠٣م.

تركت منيرو رواني پور جملة من الأعمال، أذكر منها على وجه الخصوص رواية «الغرقى» (١٩٨٩م)، ورواية «حقيبة بجانب النار» (١٩٩٩م). ومجموعة «أحجار الشيطان» (١٩٩٠م)، ومجموعة «امرأة مطار فرانكفورت» (٢٠٠١م).

عنوان القصة في الأصل الفارسي (كنيزو)، وهي مأخوذة من مجموعة (كنيزو)، ص٧، منشورات نيلوفر ٢٠٠٢م.

كنيزو

كانت كنيزو قد فارقت الحياة. لمّا رجعت مريم من المدرسة ووصلت إلى الشارع شاهدت رجالًا بمحاذاة حانة «توكلي» ينفجرون ضحكًا وهم يسحبون شادور امرأة طفا رجلها على سطح جدول الماء الذي بطرف الشارع. كانت الحانة تقع بجانب شارعٍ يبعد مئات الأمتار عن الجهة المقابلة لمدرسة مريم. مع دقِّ الجرس كان الأطفال يتدافعون إلى الشارع. وكانت نسوة البلدات

القريبة يعدن من السوق محمّلات بسلال ملأى، وحين يصلن إلى الحانة يمطرنها بالبصاق ثم يسلكن طريقًا متعرّجًا. قبالة الحانة، كان ثمة ميدان كبير مترب يتجمّع في أطرافه، عند غروب كل يوم، رجال يقذفون بأكفهم سدادات القناني عاليًا، ويبدّدون تعب اليوم بعلبة فستق.

أحسّت مريم أن رجليها لا تقويان على السير قدمًا، وكأن شيئًا ما قد تقوّض في قلبها، وكأنّ يدًا بامتداد أيادي جميع من بالساحة تعصر حلقها. كانت عيناها تؤلمانها وهاجسٌ غريب يقضّ مضجعها. ومع كل لحظة، كان عدد الناس في ازدياد مستمر؛ كان أحدهم يزغرد بصوت عال وآخر يتقوس رقصًا وطربًا فيما وقفت بضعة نسوة في الجهة الأخرى يضحكن ساخرات. وحمَّالو البازار، كأن الجنّ قد أخبرهم، انبعثوا بأحلاسهم الملطخة بالتراب. كانت أفواه الجميع فاغرة وأعينهم برّاقة، وحرّ الشمس يلفح الأبدان. وحين كانت الأمواج تتلاطم بالساحل، يتعالى صوت من بعيد: - خَرجْتِ من المدرسة، إلى البيت على الفور. لو زاغت قدمك قُضي علينا، المكان هنا ليس آمنًا.

كان هذا صوت الأم التي جمعت سَقُط أثاثها للتو وجلبته إلى المدينة. كانت القرية تقع على الساحل. كانت مريم تستيقظ مع إشراقة فجر كل يوم على صياح الصيادين العائدين من رحلة الصيد في الليالي الشتوية، وتقصد المدينة رفقة باقي أطفال القرية. كانت الأم تتوجس كثيرًا من شيئين: البحر ومِعاز الجدة.

- إذا اكفهرّ الجو قليلًا فالبحر في أسرة نومنا. لو عشنا في القارب لن يصلنا إلا القليل من الأمواج.

كانت الأم تمسك بخطوم مِعاز الجدة وتلوّيها ثم تتناول فأسًا وتنقضّ به على قرون الوعل، وفي الأخير، حين يهدّها التعب، تنكث شعرها وتشرع بالغناء: «آه... آه... الموت لأبيك، آه... «.

كانت المِعاز بأسنانها الناتئة وقوائمها النحيفة المائتة تقضم الملابس من على حبل الغسيل، وإلى أن تتحرك الأم تكون قد طرحتها أرضًا. أما ظبية الجدة المعصومة والساكنة فتذعن في ركن محدقة في الأم وهي تنهرها: - هش... يا لها من رقدة!... تنحّي جانبًا.

كانت كنيزو تتمطّط على الأرض بقميصها الملطخ بالطين والوحل فتعلق بشعرها بتلات شوك، فتنتشر في كامل الساحة رائحة الوحل والعطن.

كانت كنيزو ذات القامة السامة والعينين الشهلاوين والبشرة الشكلاتية تمر من الزقاق فيعبق المكان كله برائحة أخّاذة، فيشرع رجال المدينة –وكأنهم تلقوا إشارة رائحتها - بالجولان في الزقاق، وتظل الأم تضجّ صياحًا اليوم بأكمله. تمسك بيدها مكنسة وتبقى رابضة أمام الباب: - ما خطبكم تمرون من الزقاق، ماذا تريدون هنا؟

كانت تمسك بتلابيب الأب وهي تصرخ عليه:

- أيُّ قَوَّاد غرّر بك وساقك إلى هذا المكان؟ تكلّم، تكلم حتى أفضحه وأفحش عليه وعلى أجداده.

بقيت القرية وحيدة مع الجدة وظبيتها ومعازها الناتئة الأسنان من فرط الجوع، ورحلوا هم إلى المدينة حتى لا تفتح المِعاز غطاء قدر الأرز وتأكل الدقيق وتنتفخ بطونها فجأة، وكي لا تنهال الأم عليها وعلى نفسها بالفأس، وكي لا تجزع من أصوات أمواج البحر وليالي البادية المظلمة المدلهمّة. قدموا إلى المدينة دونما أن يعرفوا جيرانهم من يكونوا. كربلائي باقر، جارهم المقابل لهم هو الوحيد الذي طفح كيله من صيحات الأم العنيفة فكان يجرجرها دائمًا إلى دائرة الأمن ومخفر الشرطة. لم تكن المدينة تشبه القرية حتى يخرج المرء يده من بين قضبان النافذة ويمسك قطرات الموج، أو يجلس قرب ظبية الجدة ويريها راحة يده التي ما تزال تفوح منها رائحة

مسطرة المدرسة. كان البحر بعيدًا عن المدينة وأصوات موجه توقع المرء في وهدة سديم الغم. لم تعد هناك أصوات الماعز ولا أصوات ترنّم الجدة. في المدينة تنساب على المرء مشاعر الكآبة: - لمَ جلستِ في النافذة؟ ألا تفهمين أن هذه مدينة؟ خرّبها الله على رؤوسهم. ألا ترين قليلة الحياء هذه تعبر الزقاق؟

غير مكترثة للأم، ظلت مريم ملتصقة بالقضبان. من بعيد، كانت عينان معصومتان ومعروفتان تقتربان، وكأنها ظبية الجدة كانت آتية لزيارتهم، حزينة شاكية، وقطرات دمع تتدحرج على آماقها ولا تراوحها أبدًا، آتية لترى بأي ابتسامة تحمّل الأم متاعها على العربة، وكيف وقفت الجدة بقامتها المعقوفة تذرف الدموع ملء وجهها. توقفت الظبية وطفقت ترنو بعينيها المكتحلتين اللتين ملأتا فضاء القرية بأكمله، فيما تسمّرت المِعاز، بعيدًا عن الأم، تحدج حقائب الأمتعة بنظرات ملؤها الحسرة، أما أمواج البحر فكانت تتطاول مُزبدة نحو السماء. كانت نظرات الظبية مظلومة ومألوفة، ولم تلحظ أن الأب قد جلس خلف المقود بعد أن أكمل شحن الأمتعة والأثاث، فودعت الأم الجدة وأخذت تصرخ: أيتها الظبية، لمَ أنت مشدوهة، لمَ حواسك مشتتة؟

أنزلتها الأم إلى أسفل وأحكمت إغلاق النافذة:

- ذهبتِ إلى الزقاق من جديد؟ أيتها القروية، هذه مدينة. إنها ليست «الجُفرة»28، ألا تريدين أن تكوني إنسانة؟

كانت تتسكع في زقاق ضيق ومخنوق أوحاله تلتصق بالأرجل، لم تكن لينة كطين القرية حتى تحتفظ بآثار خطواتها وكي ترسم بأصبعها شكل قرون الوعل المكسورة وصورة ظبية الجدة. كانت تذهب أملًا في رؤيتها ثانية بقامتها السامقة، سمراء بعينين مكتحلتين مألوفتين: - مرحبًا.

- مرحبًا يا نور عيني!

كانت تتفحص النوافذ ثم تمسّد شعر مريم، وتارة كانت تنحني وتقبلها وتحضنها.

- من أين أحضرت هذه الشكلاتة؟

- تلك... تلك المرأة... أعطتني إياها.

- أي امرأة؟

- تلك التي تشبه... التي تمر من الزقاق.

- أيتها اللقيطة هل تأخذين شيئًا من الوقحات؟

أوسعتْها الأم ضربًا بالمكنسة حتى أحالت جسدها قطعة سوداء.

- عندنا في قريتنا ظبية.

- آه، حسنًا... ما اسمها؟

- الظبية؟ لا اسم لها، لكنها جميلة جدًا، تشبهك... أقصد... عيناها!

كانت مريم تحب ظبية الجدة. كانت تجلس في ظل جدار وتشرع في استقصاء الدنيا بعينيها الحزينتين.

- ما اسمك؟

- اسمي كنيز... كنيز.

- إذًا اسمك ليس ظبية؟

حينما كانت تجتاز الزقاق تنتشر رائحة عطرها في البيت فتسحب البنت إلى النافذة.

- بمَ تتمتمين؟

- أصلّي على النبي.

- لأجل ماذا؟

- لأجل رائحة...

- أستغفر الله العظيم، وهل بسبب رائحة طيبة نصلي على النبي. إنها ليست رائحة الورد الجوري، بل رائحة إنسانة بذيئة. هيا انهضي، وراجعي دروسك.

في بعض الأحيان، لما كانت تمر من الزقاق، كانت الأم توصد باب الصحن بقوة، وتبدأ بالزغردة عاليًا من خلف الباب. في الأيام الأولى واجهتها الأم مرة أو مرتين: - يجب أن تغادر الفاجرة المكان.

- أنت أعطني مصروفي كي لا أفجر.

فكانت يدا كنيزو تبدأ بالارتعاش، وتفتح الدمعة، التي كانت دائمًا تغرورق في عينيها، طريقها وتنساب حتى تصل إلى طرفي شفتيها الرفيعتين والمشدودتين.

- أمي! هل ستعطينها مصروفها؟

- مصروف من؟

- تلك...

- بنيَّتي العزيزة، إنها امرأة قبيحة.

- لماذا أمي؟

- إنها سيدة. سيدة، أتفهمين؟

- حسنٌ، معلمتي أيضًا سيدة...

- لا بنيَّتي... هي فاجرة.

- ما معنى فاجرة؟

- آ... هي، يا لأسئلتك! يعني أن لها مئة زوج، بل أكثر من مئة، رجال الدنيا جميعهم أزواجها.

- وهل بابا زوجها أيضًا؟

- لو يريد أبوك بوسعه أن يصير زوجًا لها.

- إذًا لمَ لا يذهب إلى منزلها ويصرف عليها؟

- يا بنت، هل ستتركينني لأطبخ أم لا؟ اخرجي، اخرجي فالدخان سيعمي عينيك.

كانت رائحة الخمر قد اختلطت بنسيم البحر العليل. والأرض تستعرُّ لهيبًا، والكلاب، بخطومها الطويلة وقوائمها النحيفة، تبحث في ثنايا القمامة في ركن من الميدان. لم يكن هناك للنساء أثر. اقتربت مريم من الحشد. كان الجميع فاغرين أفواههم. بقوة، ضرب الرجل أسفل القنينة براحة يده فسقطت السدادة فوق رجلي كنيزو ثم انزلقت إلى أسفل. كان الجميع يضحك منتشيًا. قدّم الرجل قنينة الخمر للجموع: - تفضلوا، النشوة والنشاط حتى الصباح.

أخذ القنينة وأفرغها في حلقومه واندلق الخمر على خده وطرفي فمه. عفطُ حشود الميدان وضحكاتهم المجلجلة كانت تناور حرارة الشمس. أطبق الرجل

عينيه وهزّ رأسه ثم أمسك بالقنينة المنتصفة فوق رأس كنيزو: - سوف أغسلها الآن.

أفرغ القارورة، تململ الحشد وارتعش، وغدت الوجوه غائبة بعيدة إلا رديف من الأسنان الصفراء الكبيرة والعيون الجاحظة كانت تكبر وتكبر وهي تأتي صوبه.

- سوف أخرّ الآن على الأرض، يا للفضيحة! سوف أسقط هنا وأُدهس تحت الأيادي والأقدام إلى الغروب، ليت أمي كانت موجودة، ليتها كانت هنا.

كان شيء ما يتأجج نارًا في حلقها. اشتاقت إلى يدي أمها الغليظتين والثقيلتين. اليدان اللتان كانتا تلوّيان خطوم المِعاز، وتحشران رجال الدرك في ركن المخفر. كانت الأفواه تتحرك ومريم تحافظ بصعوبة على رباطة جأشها.

- لا تفعل، سوف تأثم!

- للأسف، لم تكن سلعة سيئة، لكن أيتها الخمرة المنحوسة.

- هذه تعفنت قبل الجميع!

- لا تفعل يا صاح لا تفعل، كنا أنت وأنت من أفسدها.

- الفاتحة، الفاتحة! لا تجادلوا، وعلى من؟ على فاجرة.

تدلت يدا كنيزو إلى جانبيها من دون حراك، وكأن الأسماء التي كانت مكتوبة على رقبتها باتت أكثر وضوحًا.

- هذه الأسماء التي كتبتِها على رقبتك، هل هي أسماء أزواجك؟

- كلا يا نور عيني، إنها أسماء أصدقائي.

- أمي تقول إن لك مائة زوج.

- أمك لا تقول الصواب.

- هل تحبين أصدقاءك كثيرًا؟

- أجل، لقد كانوا أناسًا طيبين. الناس الطيبون عملة نادرة.

- هل ستكتبين اسمي هناك؟

- اسمك سأكتبه هنا، في سويداء قلبي.

كانت رائحة الخمر فائحة في كل مكان، وهمهمة البحر تنخر كيان مريم وتقلقها. كانت الأرض الخجلة والكئيبة تتنفس بصعوبة تحت وطئ أقدام الحشود. خلع أحد الحمَّالين قميصه وبدأ يعصره، بينما وقف آخرون عراة وجعلوا من قمصانهم ظُللًا يحمون بها رؤوسهم. غسل الرجل رأس كنيزو وكان يريد أن يثبّت قنينة الخمر في يدها.

- ما بكِ تحومين حول الثلاجة؟

- أريد أن أصنع ثلجًا لآخذه إلى السطح.

- أحسنت!

- أريد أن أقول شيئًا، أين أضع الفراش؟

- لا تضعيه، هناك رطوبة، سوف تبتلّين.

كان شهر حزيران، وكانت تقضي ليالي المدينة على السطح. كانت كتل الضوء تبدد العتمة هنا وهناك، حتى وقت متأخر، وبين الفينة والأخرى كان يتخطّى الظلمة صوت ضحكة صبيانية ويطرق أذن مريم. كانت الليالي في

المدينة تمضي في ضيق ورتابة بيد أنّ ليالي القرية كانت مبهجة. أثناء العصاري كان صوت الأمهات يصل إلى عرض البحر: «ها، ها..منيرو، مريمو، صدو..إنه منتصف الليل، حذار من أن يلتهمكم القرش... ها، ها..».

كان الأطفال يبرحون البحر على مضض وهم عراة مبتلون. وكانت القرية تنام في وقت متأخر على أصوات الرجال الذين تمددوا فوق الروابي الترابية الناعمة يحكون عن مغاوير «تنجستان»29. لكن ليالي المدينة فكانت تُشعر المرء بالكدر والملل.

أخذت مريم رقائق الذرة إلى السطح، ارتطم بوجهها نسيمٌ ممزوج بملوحة رائحة البحر فأحست بالبرد. كانت السماء ملأى بالنجوم، وكانت إحداها مضيئة ومنتصبة على رأس القرية تغمز. ساقتها ضحكة مألوفة نحو الجدار الذي كان يفصل سطح بيتهم عن باقي السطوح. انتصبت على رؤوس أصابع رجليها واختلست نظرة؛ كان الصحن مضاء بسراج وهاج، وأربعة رجال قد جلسوا على سجَّاد بالقرب من البستان الصغير. كانت كنيزو ترتدي ملابس طويلة مُذهَّبة وقد أرخت حواليها شعرها الأسود الملفوف حلقات. كانت تضع مرفقها على ركبة رجل بدين وهي ترفع إلى فيها ملعقة زبادي، وبجوارها كأس فارغة. قرّب الرجل كأسه إلى فم كنيزو فارتشفته فيما هو يداعب شعرها: - في صحتك... في صحتك...

شعرت مريم بدوار في رأسها وأصابتها شقيقة رهيبة. ادلهمّت عيناها ورأت بين ثنايا الضباب كنيزو وقد استوت واقفة وجاءت إلى الوسط وهزّت جسدها. وضعت الكأس على جبينها... وكأن أحدًا من بعيد كان يغنّي ويطقطق أصبعيه. كانت كنيزو تتبختر بين طبقات الضباب وسط زوغ النجوم بينما مريم ترتجف بردًا. تطبق عينيها بإحكام ثم تفتحهما. كلما وصلت كنيزو عند أحدهم تنحني عليه فيخرج يده من جيب السروال ويدخلها في ياقتها. أمسكت بالجدار كيلا تسقط. كان فمها مرًّا. وشعرت وكأن أحدًا يجشّ رأسها بمطرقة. عَلِقت الدنيا في حلقها كما ينشب شوك السمكة. اختلف كل شيء عن الصباح. رأتها

صباحًا متلفّعة بشادور حريري أزرق اللون، وهي قادمة في سكون، وكانت مريم تمسك في يدها ورقة علاماتها: - ها! أسد أو ثعلب؟

- أسد.

- إلى أي صفّ ستنتقلين؟

- إلى الرابع.

- آ... أحسنت، أيتها المجتهدة، لا شيء أفضل من الدراسة.

- وأنت هل درست؟

- كلا، لم يكن لدي أحد ولا عمل حتى...

- أتريدين أن أعلِّمك؟ سهل، سهل جدًا.

- لقد فات الأوان، غير ممكن يا نور عيني، يا ذات العيون السود.

والآن غدت كنيزو ترقص بملابس طويلة مُذهَّبة؛ تحرك كتفيها وتطقطق أصبعيها في الهواء وهم متحلِّقون حولها، تمامًا مثل السمكة الذهبية الصغيرة التي طوّقتها القروش من كل ناحية وهي لا تعرف كيف وإلى أين المفر.

لمّا كان البحر هادئًا كانت تجلس بجانب السَّد. كان سطح البحر يلمع بالرقاقات الفضية التي تعكس أشعة الشمس، وأمواج وديعة تقدم زاحفة من بعيد فتتمطّى تحت قدمي مريم، وأمام السَّد كانت السمكة الذهبية الصغيرة تلهو، تُخرج رأسها من الماء وتنطُّ في الهواء راسمة قوسًا ثم تغطس ثانية في الماء. بعد لحظات تطفو على السطح وتسترخي، غير منتبهة للقروش التي وصلت بغتة. بعد ذلك يغدو البحر أحمر قانيًا. كانت أفواه القروش في حركة دائمة، مضرّجة بالدماء.

كان الرجل البدين يقبّل كنيزو ويلتهم خديها أمام أعين السراج الصفيق الذي كان يكشف كل شيء.

«ليتها كانت الظلمة، ولم يكن الضوء أصلًا. فلتتزلزل الأرض أيها السيد أشك30، فليأت الزلزال وليردي كل شيء!».

فجأة طارت النجوم في عينيها واصطدم رأسها بالجدار بقوة: - إنك تتفرجين على السينما، ها؟

كانت الأم وقد أرغت وأزبدت. نفذت عيناها العسليتان الشرستان في عيني مريم. وطئت الأم بمؤخر قدميها على أصابع رجلي مريم ووضعت كل ثقل جسدها عليها. كانت أصابع مريم تتداعى ألمًا: - أتريدين تعاستي؟ وهل في شرب الخمر والخلاعة فرجة، أيتها اللقيطة؟

ثم جمعت قبضتها ولفّت شعر مريم على يدها وجرجرتها أرضًا.

«سوف أريك، حتى ينشروا أخبارك في الكتب».

استشعرت مريم هلعًا ماحقًا وانكمشت على نفسها. كانت الأم تجرّها من شعرها وهي تهبط درجات السلم، وكأنها نهاية العالم.

- امكثي هنا حتى تفقأ الأفاعي عينيك.

كانت حجرة التخزين مظلمة وضيقة، والجو خانقًا ولافحًا ممتزجًا برائحة الدقيق المتعفّن والأرز. ظلام بهيم وصوت حفيف الحيّات... «فش»... «فش»... كأنّ شيئًا ما يرفرف، له انحناءة بقتامة القير، كان لينًا وينفلت من اليد. سمّرت نفسها في الجدار... تسلّق ذلك الشيء يديها بمرونة. كان وجهها مبتلًا، توقفت مريم عن التنفس وكزّت على شفتيها حتى تحول دون خروج الصوت... اعتلى يديها، كان أسود رقيقًا... وصار كبيرًا... كبر حتى شغِل المخزن بأكمله..التفَّ حول خصرها ثم وصل إلى شفتها... اتَّخذ شكل رجل

سمين وذميم كان طافحًا بالسكر ويريد خنق أنفاسها... صرخت... حين فتحت عينيها كانت قد سقطت فوق السطح مغشيًّا عليها. والأب عند رأسها ينتحب، بينما تدخن الأم النارجيلة. كانت النجوم في السماء حائرة... وقطر النجمة يهمي على دموع الأب: - اجلس، لا تبكِ... ستزداد سوءًا وتصاب بالهلع.

كانت الأم عطوفة. مسَّدت جبينها وساعدتها على النهوض ثم ناولتها كأسًا وقالت: - اشربي، هذا ماء الذهب31.

في الصباح جلستْ في الزقاق الموحل، وشرعت ترسم على التراب بحصاة والقنوط ينخر كيانها وكانت تبدو كمن ضيّع شيئًا.

- هل تلعبين يا نور عيني؟

كانت كنيزو بعينيها الحمراوين المنتفختين، متلفِّعة بشادور الصلاة الأبيض. لم تلتف إليها مريم، وكأنها كانت خجلة: - ماذا حصل يا نور عيني، أين أمك؟

- في السوق.

- لا تبدين على ما يرام...

- حسنٌ...

أجهشت مريم بالبكاء، فسألتها كنيزو وقد تملكها الارتباك: - ما الذي حصل؟ ما الأمر... حسنٌ ماذا؟

- حسنٌ... لا تلبسي تلك الملابس مرة أخرى.

- أي ملابس؟

- تلك المُذهَّبة، التي... ليلة أمس... أنا... من السطح...

عويل مريم كان يصل حتى منتهى الزقاق. هاج قلب كنيزو وماج وانهارت وغدت كمن خرّب الزلزالُ حياتَه عن بكرة أبيها.

- حسنٌ، حسنٌ... الأمر ليس كما تتصورين، أقصد ليس دائمًا، بعض الأوقات فقط...

- لا تفعلي ذلك، أبدًا... أمي... تقول... إنك لست شريفة. تقولها للجميع... أنا سأعطيك مصروفك. سآخذ كل أسبوع تومانًا واحدًا زيادة... حصّالتي مملوءة... مملوءة بالنقود.

انصرفت كنيزو وهي تجهش بكاء.

كان صوت عامل النظافة في الحارة يُسمع وهو قادم مع طقطقة عربته. وكان يُسمع أيضًا صوت ضراط مصطنع من الشفتين، وصوت سكّير يطلق العنان لريحه ويحرّك شقه الأسفل يمينًا ويسارًا مع أدنى فرقعة يسمعها من أصابع النساء.

- تنحَّوْا جانبًا. أفسحوا الطريق. يجب أن نحمل الميت.

- هذه ليست ميتة!

- إذًا ماذا تكون؟ إذا لم يكن المرء حيًا فهو ميت.

- ارموها في البحر!

- خسارة للبحر!

- الآن صارت خسارة للبحر؟ ألم تكن أنت من تسير في إثرها متملِّقًا، لمّا كانت في عزّ أيامها؟

- أنت أيضًا كنت تفعل.

- نعم، جميعنا كنا نفعل، لكن الآن سوف تفوح رائحتها النتنة بعد عشر دقائق.

- لقد تصلّبت مثل قطعة خشب، كيف سترفعها؟

- أنا... أنا سوف أرفعها.

كان هذا صوت السكّير وهو يترنح مُجرجِرًا رجلي كنيزو، وقد التصقت بجبينه حلقة من شعر كنيزو الأسود المبتل. كانت شفتاها الدقيقتان البيضاوان تبدوان وكأنها مشدودتان، وبتلة شوك عالقة في شعرها. كانت الأسماء المكتوبة على رقبتها معلّقة تحت واحدة من زعانف سمك الزندر، ورأسها المُعوج وعيناها الواسعتان الشاكيتان تتطلعان إلى مريم. كانت يدها تحاكي قدحًا صغيرًا، وكأنها تريد أن تأخذ من مريم شيئًا.

- عيدكِ مبارك، أين كنتِ لم أعثر عليك؟

- ذهبنا إلى الجُفرة. عيدكِ مبارك.

- كيف تركت ظبية جدتك؟

- جيدة... تعالي فقد أحضرت لك شوكًا. شوك السيد أشك32.

- شوك؟ لأجل ماذا؟

- كي تأكليه فتحصلين بعد ذلك على كل ما تتمنينه.

كانت قد ذهبت إلى القرية لتجني شوك السيد أشك وتلتمس منه أن ينقذ كنيزو من هذه الحياة.

كان غروبًا بئيسًا وضريح الإمام خاليًا. كانت أمي تشعل الشمع وهي تبتهل: - ماذا تتمتمين أمي؟

- أدعو لكل الناس.

- لكل الناس؟

- أجل، لجميع عباد الله.

- أليس في ذلك وزر؟

- بنيّتي العزيزة، الدعاء ليس فيه وزر.

- إذًا أعطني أنا أيضًا شمعًا.

- هاك، حينما تشعلينها صلي على النبي.

كانت الأم مسرورة.

- ماذا تتلين أنت؟

- دعاء.

- لماذا؟

- لكي يخلّصها من هذه الحياة؟

- يخلّص من؟

- تلك...

- بنيّتي، الدنيا مليئة بالمتسولين والجياع، ادعي لهؤلاء.

- معلمتي تقول إنها أيضًا محتاجة للدعاء مثل المتسول.

كانت كنيزو مطروحة أرضًا، وعيناها المظلومتان الشاكيتان تعذّبان مريم.

«ماذا أفعل؟ لا شيء... لا شيء. ليتهم أغمضوا عينيها... كلا، أمي سوف تعلم، لو قمت بأي عمل سوف تعلم وتأتي إلى المدرسة وتخبر الجميع. أنت لا تنظري هكذا... سيأخذك عامل النظافة، سيجمعك ويذهب... وذاك سكّير... أنت بنفسك قلت ذلك... قلت أن السكّير ليس في وعيه، قد يقدم على أي فعل... أي فعل... ».

قدمت كنيزو إلى الزقاق عارية تصرخ وتصيح:

«ما بالكم تبصقون وتلعنون! هل أنا مريضة حتى أشتري لنفسي جهنم؟ الذنب ليس ذنبي، نور عيني تعرف... معلمتها أيضًا تعرف... آ... انظروا... شاهدوا وتفرّجوا بالمجان... لم يتبق لي شيء... انظروا... كان رئيس دائرة الأمن يأتي إلي... وحاكمُ المدينة... والشباب والشيوخ... بعد ذلك يبصقون... تفٍّ على هياكلكم... تفٍّ عليكم من الرأس إلى البنان... تفٍّ على جدّكم وأصلكم... ».

أسكت ضابط أمن صيحات كنيزو.

- الحمد لله أنها سجنت ولم يعد لها أثر.

- أمي، ماذا يفعلون بها هناك؟

- هناك ستصبح إنسانة، كل من يذهب إلى هناك يصير إنسانًا.

- لكن معلمتي تقول لا فائدة من ذلك.

- لا فائدة من ماذا؟

- من حبسها.

- وهل يدعونهم يُعظِّمونها ويُمجِّدونها؟!

- كلا، لكنها تقول لا يمكن حل المشكلة بهذه الطريقة.

- إذًا كيف تُحل؟

- تقول حين أكبرُ سأعرفُ الكثير، وتقول حين أقرأُ الكثير من الكتب سأفهم.

- حسنٌ... هذا عن معلمتك لهذه السنة... بنيّتي يجب إحراق هؤلاء...

كانت الأرض تلهث ظمًا من وقد الحر، وكانت الحشود تنتظر. أحضر عامل النظافة في الحي عربته وقرّبها إلى جثة كنيزو وسط صوت الأذان الذي كان يرتفع من مئذنة المسجد: - دعني أحمّلها بنفسي في العربة.

- أنت إذا استطعت، حافظ فقط على توازنك.

وقف السكّير قبالة العامل ووضع يديه على خصره واندفع قائلًا: - كيف؟ لا... أستطيع... رفعها؟... في حياتها... احتضنتها مئة مرة، حينذاك كانت ثقيلة. ألا أستطيع الآن؟

- تنحّ جانبًا، هيّا اغرب عن وجهي.

- لن أذهب.

- لعنة الله على الشيطان الرجيم، ابتعد جانبًا.

- لن أبتعد... كانت هذه خليلتي...

- الله هو الذي شاء أن تكون خليلتك وإلاَّ...

- وإلاّ ماذا؟

أمسك الرجل بتلابيب عامل النظافة وهو بالكاد يحافظ على توازنه.

- كُفًّا... لقد كانت خليلة للجميع.

- هل تتشاجران على رأس نعش هذه؟

- المنحوسة! لقد ماتت، احملوها.

- لم تقل وإلاّ ماذا؟ ها؟ ماذا... أظننتَ... أنك اشتريت لها قنينة خمر؟ ها؟ ناولْتَها ما فَضَل من جرعة في قاع الكأس؟

- ها... أيها الأوغاد... جميعكم، كُلُّكم أوغاد.

أخذ الرجل يشهق بكاء. كانت السماء مدثرة بسحابة بيضاء، والكلاب تتقاتل على عظمة، وصوت الأذان آتٍ من مئذنة المسجد.

«فداء للأذان، فداء للأذان».

كانت مريم قد وصلت للتو من القرية والأم مسرورة تختال حيوية وتضحك: - حمدًا لله، في نهاية المطاف غربتْ عن وجهنا وانصرفت.

- من ذا الذي ذهب، أمي؟

- تلك المرأة المعلومة...

- هل تركت هذا المكان؟

- أجل، أبوك يقول إنها ذهبت برفقة أحد أصحابها، الحمد لله، كانت قد لوّثت الزقاق.

صعدت مريم إلى السطح وبدأت تبحث عن كنيزو في الفناء. منظر الفناء وهو خال كان يدمي قلبها، قرية بلا ظبية الجدة! غالبها البكاء. لم تعد تنبعث من الزقاق تلك الرائحة العطرة، ولم يعد يوجد أحدٌ تنظر إلى ما حواليه بتوجس، ويمرّر يدها على رأسها ويسألها: - كيف حال ظبية جدتك؟

أو حينما تُعرض مريم عن رائحة فمها بوجه عبوس، تهزّ رأسها وتقول لها: - ادعي الله أن ينجّيني من هذه الحياة.

- أمي، لنذهب إلى «الجُفرة».

- لمَ نذهب؟

- أريد أن أزور ظبية الجدة.

- أنت كنت هناك يوم الجمعة.

- ألا يمكن أن نحضر الظبية إلى هنا؟

- لا، سوف تقلق الجدة، لن تسمح لنا.

كانت تجلس مقابل ظبية الجدة وترنو إلى عينيها المظلومتين الحزينتين كعيني كنيزو.

- أمي، ما معنى القَدَر؟

- يعني النهاية والعاقبة، المكتوب على الجبين.

- النهاية والعاقبة؟

- نعم، ألم تسمعي أن لكل واحد مصيره، واحدٌ حسنٌ وآخر سيء. كلٌّ ونصيبه.

تنهدت الأم تنهيدة وقالت:

- آهٍ على الدنيا!... لو كان قَدَر كل شخص بيده... آه!

- أليس قَدَر الإنسان بيده؟

- كلا، كل من يأتي إلى الدنيا فقد كُتب مصيره سلفًا. مصيره معلومٌ حتى موته.

- المعلّمة تقول إن لهؤلاء مصيرًا محزنًا.

- من هم؟

- الناس أمثال تلك... تلك...

- بنيَّتي، إنها قد رحلت، وأنت تكبرين، لا تتعلقين بها إلى هذه الدرجة. لو علم الناس فسيسفّهون رأينا. لقد كانت امرأة سيئة، غفر الله لها.

- لم يكن الأمر بيدها.

- ماذا؟

- قَدَرها...

آلمتْ صخرةٌ ساق مريم فالتفتت، فإذا بصبي جعلها هدفًا لسهمه. كان الرجل السِّكير يتهوَّع، وهم يضعون كنيزو داخل العربة. أمسك عامل النظافة بإحكام بزمام عربته، بينما توقف البعض مترددًا: - شادورها، ارموا عليها شادورها.

- إنه مبتلّ.

- وهل تخشى أن تصاب بنزلة برد؟!

- أنت من جديد، تنحّ جانبًا وتقيّأ.

- فاتتني صلاة الظهر، اذهبوا إلى بيوتكم.

لم تكن مريم لتقلع، كأنَّ نارًا شبَّت في مكان والناس فقط ينظرون، ولا يستطيعون القيام بشيء. تأخر الوقت وتسرّب القلق إلى الأم: - أين كنتِ إلى الآن؟

- ذهبتُ إلى المكتبة.

لقد كَذَبتْ. خرجتْ من المدرسة مع دقِّ الجرس، ورأتها آتية صوبها مترنحة، كانت كنيزو وقد صارت نحيلة. خُيِّل إليها أنها سوف تندثر وتنهار مع هبَّة نسيم. غدت هزيلة ممتقعة اللون، وبدت وكأنها متهدّمة بعينيها الشهلاوين الكئيبتين: - نور عيني، يا ذات العينين السوداوين!

- آ... أهذه أنتِ؟

- نعم، كنيزو.

- أَ... أين كنتِ؟... كل هذه المدة؟ هل ذهبت لتتزوجي؟

- نعم، لكن الزواج لم يتم.

- لماذا؟... أنت لست بخير.

كانت كنيزو ثملة وتجترّ كلامها. طوّقت قفا مريم بذراعها وأخذت تقبّلها، ومريم تتفحص ما بحولها.

- سآتي بعد أسبوع... في إثرك... أنت الوحيدة الطيبة... أنت ومعلمتك... أترين أن الكل قد تركني وذهب. قالوا فاسدة! المجتمع فاسد يا نور عيني أليس كذلك؟... معلمتك على صواب، فاسدٌ... فاسد.

لم تعد رائحة كنيزو عطرة كما كانت. باتت تفوح من فمها الرائحة نفسها التي كانت مريم تجدها، في بعض الليالي، في فم والدها. عادت كنيزو لكنها صارت

كمن جوّع ظبية الجدة وأوسعها ضربًا حتى خرجت أضلاعها.

- لقد فاحت رائحتها، مهما يكن فهي ميتة، تنحّوا جانبًا.

كان هذا صوت منظّف الحارة الذي تفصد عرقًا وهو يحرّك زمام العربة ليفتح الطريق. غدا شادور كنيزو في الأيادي كرصاصة تُقذف من رأس إلى آخر وسط الجموع. كانت يدا كنيزو معلَّقة بالعربة وعيناها شاخصتان نحو السماء التي لبّدها غيم أسود. رأت مريم أن الرجل السكّير يريد إنزال كنيزو من على العربة، فسمعت صوتها وهو ينطلق متخطّيًا صوت البحر ويجلس على بساط صدور الناس: - لا تفعلْ، يا عديمَ الشرف!

تقهقر الرجل لمّا سمع صوت بكائها.

- يكفي هذا، وكأنكم كنتم فقط تنتظرون موت هذه.

وجّه عامل النظافة العربة صوب الإسفلت وشرع في إحكام شدّ عجلاتها. شهيق مريم لم يتوقف، والناس يتململون أمام عينيها والأصوات تبتعد أكثر فأكثر: - عزيزي، تومانان فقط، تومانان فقط.

كانت كنيزو تتعقّب الرجال ملتمسة، وحين يهدُّها التعب تبحث وسط النفايات، فتجمع الزجاجات الفارغة وترتشف ما يُهيأ لها أنها قطرات. لم يعد أحد يقتفي أثر كنيزو باستثناء حمّالين كانوا يؤوون أجسادهم المنهكة إلى خان خَرِب في أطراف المدينة.

- كنيزو، لا تبحثي وسط النفايات.

- إنهم يأكلون نقودي يا نور عيني.

- من هم؟

- الحمّالون.

في بعض الليالي كان صوت نحيب وشتم كنيزو يصل إلى الميدان: - لا أراكَ الله خيرًا في شبابك!... تعستَ وشقيت!... جعلها الله حبلًا يلتفّ على رقبتك!... أعطني نقودي... أي... أي لقد متُّ.

وأصوات ضحكات الحمّالين المجلجلة تخدش سكون الليل.

- كنيزو تعالي، لقد أحضرت لك هذه النقود.

فتعدّ النقود:

- حسنٌ... هذه خمسة... وهذه ستة... كلها فكّة... من أين أحضرتِها؟

- كسَّرتُ حصّالتي. لا تعودي لأخذ النقود من أحد. سوف أجمع نقودي كل شهر وأعطيك إياها.

- حسنٌ، حسنٌ يا نور عيني.

كانت مريم تصعد إلى السطح وتشاهد كنيزو وهي جالسة ممسكة في يدها كوزًا وبطرف شفتيها سيجارة، ترقب باب غرفة دلفت منها امرأة بمعية رجل. حين يخرج الرجل تُسلِّمه كنيزو الكوز الذي ملأته ماء.

ارتطمت صخرة برجل مريم فالتفتت، لقد كان العامل وهو يجر العربة منطلقًا تتعقبها الجموع مثل قطيع غنم. كان حذاء كنيزو ذو الكعب العالي يصطدم بجدار العربة فيحدث طقطقة. وكان الأطفال ينثرون الحجارة. كانت العربة تبتعد وصوت البحر يصل ومعه نعيق النوارس. صوت طقطقة حذاء كنيزو كان يصل إلى منتهى الشارع مع صوتها الملتمس: «أيها الشاب، تومانان فقط، تومانان فقط».

28 - اسم قرية تقع بالقرب من مدينة بوشهر في جنوب إيران، وهي مسقط رأس الكاتبة.

29 - اسم منطقة تقع بين جنوب وشرق مدينة بوشهر في جنوب إيران.

30 - من سادات أهل البيت بمدينة بوشهر في جنوب إيران.

31 - من الطقوس الرائجة في جنوب إيران، يسكبون الماء على الذهب ويعطونه لمن أصيب بالذعر ليشربه كي يهدأ.

32 - من سادات أهل البيت بمدينة بوشهر في جنوب إيران.

الفصل 15

زويا پيرزاد (١٩٥٢-...)

كاتبة وقاصة إيرانية معاصرة، من الطائفة الأرمينية. ولدت بمدينة آبادان في جنوب إيران في العام ١٩٥٢م. تلقت تعليمها الأولي بمسقط رأسها. تزوجت وانتقلت للعيش في العاصمة طهران. سيلمع نجم زويا پيرزاد في العام ٢٠٠١م بعد فوزها بأكثر من جائزة؛ من ذلك حيازتها لجائزة بيكا عن روايتها «أنا سأطفئ المصابيح». الرواية نفسها ستصنف أفضل رواية في العام من طرف مؤسسة هوشنگ گلشيرى. كما ستفوز بجائزة رواية العام التي تمنحها وزارة الإرشاد والثقافة الإيرانية وأيضًا بجائزة يلدا الأدبية. كما ستفوز مجموعتها القصصية «مذاق الكاكي اللاذع» بجائزة مهرجان الأدب القصصي العشرين في العام ١٩٩٧م.

ترجمت زويا پيرزاد جميع أعمالها إلى اللغة الفرنسية.

من آثارها الأخرى مجموعة «ككل العصاري» (١٩٩١م). «يوم على عيد الفصح» (١٩٩٨م). ورواية «سنعتاد».

عنوان القصة في الأصل الفارسي (لكّه)، وهي مأخوذة من مجموعة (مثل همه عصرها) [ككل العصارى]، ص١٩، منشورات مركز ١٩٩١م.

بقعة

وضعت المرأة غزلها على ركبتها وأمالت رأسها إلى الخلف، وبهدوء أدارت رقبتها يمنة ويسرة، وبيدها اليسرى مسحت على كتفها الأيمن. كانت ترى الزقاق من المكان الذي جلست فيه؛ هناك حيث الأطفال يلعبون الكرة في

جو قائظ وخانق. أسندت المرأة رأسها إلى سكينة أريكة ثم أغمضت عينيها. كانت تميّز الأطفال بوضوح من أصواتهم، واحدًا تلو الآخر؛ كان هذا علي الذي يصرخ: «مرِّر الكرة!»، وذاك الذي يضحك مقهقهًا محمد، وبهروز يصيح بأعلى صوته: «لا تلاجج، لم تدخل الكرة إلى المرمى!»، وخسرو يصيح بشدة: «هيّا، سدّد الكرة!». وكان صوت بكاء يطرق الآذان، لقد كانت معصومة أخت محمد، كانت تضجّ بالبكاء دون توقف حين لا يلاعبها الأولاد. كان أيضًا يُسمع صوت بوق دراجة، لقد أحضروا جرائد المساء. تململت المرأة برأسها على الأريكة الوطيئة. تدثّرت بأصوات الزقاق المألوفة وبحرارة الصيف اللاّفحة كما تتدثّر بلحاف ناعم وأسلمت نفسها للنعاس.

قبل ثلاثين سنة كانت قد اجتازت ضوضاء هذا الزقاق بمعية زوجها، ودخلت لأول مرة هذا البيت الصغير، يومها أيضًا كان الأطفال يلعبون الكرة في الزقاق. ربما كانوا آباء محمد وبهروز وعلي. وكانت بنت صغيرة تنتحب في ركن. حينذاك لم يكن بالباحة مزهرية ياسمين. ولم يكن أيضًا يوجد بكُوَّات الغرفة تماثيل خزفية صغيرة. كل هذه الأشياء ظهرت بالتدريج فيما بعد. في البدء مزهرية ياسمين واحدة ثم الثانية. في الأول تمثال غزال صغير ثم غزال آخر، ثم فيل صغير ذو خرطوم بنعومة إبرة. وبمرور السنين، وشيئًا فشيئًا، أترعت المرأة بيتها الصغير بمزهريات ياسمين وتماثيل وأشياء أخرى.

كان الزقاق بأصواته الصاخبة خلال النهار وسكونه خلال الليل بمثابة ورق مذهّب يغطّي وجه هذه المجموعة الأَلِفَة الأنيسة. كانت حياتها مثل خط مستقيم، مثل شِلَّة حرير امتدَّت الآن وطالت أكثر فأكثر حتى لفّت كامل السجّاد. استمرت حياتها ثلاثين سنة على هذا المنوال. ثلاثون سنة تشابهت كل أعوامها وكل شهورها وكل أيامها، بلا أدنى تغيير، ودونما حادثة. ولم يكن للمرأة أي شكوى من هذه الناحية. بل كانت متوجِّسة من حدوث حادثة. فكانت تهيج وتموج مع كل نزلة برد عادية تصيبها أو تصيب زوجها، ليس فزعًا من المرض بل جزعًا من التغيير الذي سيطرأ على برنامج حياتها. كانت تحب

أن تكون مطّلعة بدقة على ما سيواجهها كل يوم وكل ساعة. وحتى تتعود على أي تغيير يستجدّ في حياتها كان يلزمها وقت طويل جدًا. ذات مرة، اشترت طنجرة جديدة فمرت أيام وأيام وهي مركونة في جانب من المطبخ حتى ارتضت أخيرًا طهو الطعام فيها. ومع ذلك، لم يستسغ فمها الأكل الذي أعدته في الطنجرة الجديدة.

زواجها هو الحدث الوحيد في حياتها. وهي تجد صعوبة بالغة في استحضار فترة ما قبل الزواج. تستشعر ذكرى غامضة عن أبويها اللذين ودعا الحياة سنوات قبل زفافها. بالنسبة لها فالحياة ابتدأت من اليوم الأول لزواجها. غير أنها الآن، حتى هذا اليوم لا تتذكّره بصورة جيدة. وكأنها تزوجت يوم ولادتها أو وُلدت يوم زواجها. نادرًا ما كانت تفكر في الأيام التي سبقت زواجها، كان هذا الأمر شاقًا عليها، وكأنَّ عليها أن تفكر في شيء ليس له وجود، وكأنَّ عليها أن تفكر في حياة شخص آخر. لما كانت تسمّر عينيها في صور الماضي الممتد لم تكن تتعرّف نفسها؛ الفتاة شاحبة اللون التي في الصور والمرأة الموقرة المستلقية في حر هيكلها السمين التي تتفرج على الصور غريبتان عن بعضهما البعض. والفتاة لم تكن تحرك ساكنًا في ذهن المرأة. بقدر ما كانت الحياة قبل الزواج بالنسبة لها بعيدة ومبهمة وغريبة، كان استحضارها لمرحلة ما بعد الزواج يسيرًا وجليًّا. وكأنَّ كل أعوامها كان عامًا واحدًا، وكل شهور ذلك العام كان شهرًا واحدًا، وكل أيام ذلك الشهر كان يومًا واحدًا، اليوم الذي كانت كل لحظاته مأنوسة وحميمة وأَلِفة.

حين كانت تستيقظ صباحًا وقبل أن تباشر أي عمل كانت تشغّل الراديو. بعد ذلك تبسط مائدة الإفطار، بينما المذيع يسترسل في نشرته الإخبارية. لم تكن قط تصغي إلى الأخبار، لكن صوت المذيع كان بالنسبة لها مألوفًا ويبعث على السكينة والهدوء. عندما كان يذهب زوجها إلى إدارته كانت تنبري المرأة لغسل الأواني، بعد ذلك تسكب لنفسها كأسًا من الشاي، وتجوب البيت وكأس الشاي بيدها. تطلّ على الغرف وتذهب إلى الفناء وترتشف شايها وهي

تحصي في ذهنها أعمال يومها. بعد ذلك كانت ترتدي ملابسها وتخرج للتبضّع. عند العودة كانت تنظف البيت ثم تغسل الملابس وتكويها. لم يكن زوجها يرجع إلى البيت لتناول وجبة الغذاء. فكانت، في الغالب، تتناول الطعام الذي فَضَل من ليلة أمس. خلال العصاري كانت أحيانًا تزور جيرانها ومعارفها؛ ثُريَّا التي توفت أمها ومهين هانم التي أنجبت حديثًا.

لم ينجبا أولادًا، ولم يكن للمرأة أي شكوى من هذه الناحية، بل ربما كانت راضية، لأنه كان يصعب عليها تصور كائن حي وجديد في بيتها. لأنه كان عليها أن تقلق وأن تسعد من أجله. وهي لم تكن تحب لا القلق ولا الابتهاج. الطفل يعكّر صفو الحياة ويخلّ بهدوئها بينما كانت هي تحب هذا الهدوء أكثر من أي شيء آخر. خلال الأماسي بعد أن كانت تنتهي من إعداد وجبة العشاء، كانت تجلس على أريكة كبيرة وترهف سمعها إلى الأصوات المنبعثة من الزقاق. وقبيل حلول الساعة السابعة بدقائق تتطلع إليه منتظرة عودة زوجها. كان بيتهما يقع إلى منتهى الزقاق حيث كان ممكنًا رؤيته من النافذة بالكامل وحتى نقطة التقائه بالشارع. عادة ما يكون الزقاق في السابعة ليلًا مظلمًا وساكنًا وخاليًا. وحدها تلك الناحية من الشارع التي تُرى من النافذة، كانت دومًا مضيئة. تتراءى من بعيد، من حيث جلست المرأة، أضواءُ لوحات النيون ومصابيح السيارات والمحلات التجارية وهي تركض متداخلة، وتبدو مثل نقطة ضوء كبيرة تدور حولها غوغاء الشارع بسرعة وبصورة دائمة كأنها هالة. لم تكن المرأة تحب هذه النقطة، إذ لمّا كانت تمعن فيها النظر تتخذ أشكال غريبة ومخيفة فتدبّ في أذنيها همهمة مبهمة. أحيانًا كانت تحس أن هذه النقطة تقترب أكثر فأكثر وتكبر وتكبر حتى لكأنها تريد ابتلاعها، فتستحيل الهمهمات المبهمة قهقهات مجلجلة ومرعبة. بيد أن المرأة كانت مرغمة على النظر إلى النقطة لأنه آجلًا أو عاجلًا سوف تنفكُّ عنها بقعةٌ سوداء وتأتي نحوها. كلما اقتربت البقعة أكثر قلّ خوف المرأة. فتكبر البقعة شيئًا فشيئًا ويتغيّر شكلها، فتلمح المرأة زوجها وهو يقصد البيت بهدوء وأناة. كانت هذه

أفضل لحظة في يومها. اللحظة التي تُكمل فيها بقعة سوداء وصغيرة مجموعَ حياتها الصغيرة المؤنسة والأَلِفة. فينتفي خوفها من نقطة الضوء الكبيرة.

فتحت المرأة عينيها، كان الليل قد أرخى سدوله، ولم يعد يُسمع أي صوت من الزقاق. نظرت إلى ساعتها، كانت تشير إلى السابعة ليلًا. أبصرت الشارع فإذا بالبقعة السوداء الصغيرة قد وصلت إلى منتصف الزقاق. أخذت نَفَسًا طويلًا وهبّت واقفة. كان عليها أن تغرف الطعام في الطبق.

الفصل 16

عباس معروفي (١٩٥٧ - ...)

كاتب وشاعر وناشر وصحفي معاصر مقيم بألمانيا. ولد في العاصمة طهران سنة ١٩٥٧م. درس وتخرج من كلية الفنون الجميلة بطهران وتخصص في الفنون الدرامية. درّس الأدب في المدارس الثانوية بطهران لمدة ١١ سنة. وشرع في أنشطته الأدبية تحت إشراف الشاعر المعاصر هوشنگ گلشيري.

أول أثر نشره عباس معروفي مجموعته القصصية «مقابل الشمس» وكان ذلك سنة ١٩٨٠م. وبصدور رائعته الروائية «سيمفونية الموتى» (١٩٨٩م) سيخلّد اسمه ضمن الرواد. في العام ٢٠٠١م فاز بجائزة «مؤسسة المنشورات الفلسفية الأدبية سور كامب»، وفي العام ٢٠٠٢م حصل على جائزة «المؤسسة الأدبية آرنولد تسوايك».

أصدر معروفي آثارًا كثيرة. من أشهر إبداعاته الروائية: «سيمفونية الموتى» التي ترجمتها إلى العربية وصدرت عن دار المتوسط سنة ٢٠١٨م. «عام البلاء» (١٩٩٢م). «كان لفريدون ثلاثة أبناء» (٢٠١٣م). من مجاميع قصصه أذكر: «آخر أحسن جيل» (١٩٨٦م). «عطر الياسمين» (١٩٩٢م). «صروف الدهر» (٢٠١٥م).

عنوان القصة في الأصل الفارسي (جشن دلتنگی)، وهي مأخوذة من مجموعة (آخرين نسل برتر) [آخر أحسن جيل]، ص٧١، منشورات گردون ١٩٨٦م.

حفل السآمة

صمتٌ رهيبٌ يطبق الآن على الغرفة. لففنا سرير نومكِ بذات الملاءة الزّهرية البسيطة، ولم نسمح لأحد بالنوم عليه، حتى أنا لم أنم عليه إلى الآن. أحبُّ الأرض أكثر. تركنا كتبك كما كانت على الوضع نفسه. أضفنا فقط قفلًا إلى زجاجة مكتبتك ووضعنا صورتك في برواز ذهبي اللون وعلقناها أعلى مكتبتك، ثم رفعنا الستائر. ذات الستائر القديمة المخططة بالأزرق والأحمر، المزركشة بورود مذهَّبة والتي كانت تغطي نافذة الغرفة. أفرغتُ عدة علب من الورق الملون وألصقته مع بعض وجعلته على شكل شريط ثم علّقته في جميع أرجاء الغرفة. مع كل هبّة نسيم يتموّج الورق ويتلوّى. أثّثتُ الطاولة بكعكة صغيرة ووضعت إلى جانبها عوضًا، عن الشموع الأربعة والعشرين، علبة أقلام ملونة من فئة ٢٤. اليوم أحتفل في غرفتك بالذكرى الرابعة والعشرين لحياتك، بمفردي. قد تظنين أنني مجنون. ليس مهمًّا، لكن عزيزتي ملاك، هناك أشياء لا يمكن تصديقها، تمامًا مثل لاعب كرة قدم يلج إلى الملعب في اللحظات الأخيرة من عمر المباراة فيحس بأن قدميه قد شُلَّتا عن الحركة. طوال هذه السنوات الأربعة التي تعيشين فيها في إيطاليا يتبادر إلى ذهني باستمرار أنك قصدت صيدلية لاقتناء الأقراص لأمي، أو ذهبت إلى المدرسة أو إلى مكان آخر، لست أدري. وأنك سوف تعودين في هذه الأثناء أو بعد ساعة وتقولين مجددًا:

«ما هذه اللوبيا المتناثرة وسط الغرفة؟».

«جلبتها لأقوم ببعض الأعمال اليدوية».

«في غرفتي أنا؟».

وفيما بعد، حين كنت تستعدين للسفر، كنت تقولين:

«سعيد، تعال لألوِّن رسوماتك».

لذلك، كنتُ كل يوم أرسم رسمًا جديدًا. أحسست أنك صرت ظريفة. لطالما كنت لطيفة، غير أنك، في تلك الأيام، أبديت اهتمامًا أكثر بأعمالي. حين كنت تذهبين برفقة أمي لتباشري أمور جواز سفرك كان صدري ينقبض. آنئذٍ كنتما تعودان منهكتين وتجلسان إلى الغلاّية فتندفع أمي:

«لو كان أبوكما حيًا ما كنت لأتسكّع في هذه الإدارات».

كان أبونا قد توفيّ، وكنّا قد تعوّدنا على غيابه، لكن بعد هذه السنوات الأربعة مازلتُ لم أتعوّد بعدُ على غياب الأخت. المرآة والمصحف ذاتهما الموضوعان في الكوّة، كانت أمي قد أحضرتهما إلى المطار. مصحف صغير غلافه جلدي. أَمسكَتْه، ذات مرة، فوق رأسك عند عتبة باب صحن البيت وعبرتِ من تحته. قبّلتِ المصحف وشاهدت نفسك في المرآة وضحكت. انتظرتْ أمي حتى ابتعدتِ بضع خطوات ثم تناولتْ وعاء ماء تطفو على وجهه ورقة خضراء، ورشّتِ الماء من خلفك، وأنت كنت تضحكين، طوال الوقت كنت تضحكين. ربما كنت أيضًا تذرفين الدموع. رجعتِ القهقرى وألقيت نظرة على النوافذ ثم سوّيتِ كتفيك كي تبدين مثل النسوة المختالات المثقفات. وكان الأمر كذلك؛ بتلك الحقيبة الكبيرة والقميص الأبيض والخطوات الوئيدة والمترددة أشبهتِ شكل النساء. كنتِ، أحيانًا، تنطّين عاليًا وتحثّين الخطى. لكن من جديد تعودين ملاك، ذاتها. كنت تمسكين خدود الصغار وتقتلعينها ثم بعد ذلك تقبّلينهم، وبغير ضوابط. كنت تقولين لأمي مرارًا: «لا تحزني».

بيد أني كنت أعرف أنك تودّين البكاء. كنتِ تسترقين نظرة إلينا فتفترّ شفتاك بابتسامة تشي بالسعادة. كنتُ أنا من حملت حقيبتك واستبقتك بها، وتعبتُ من فرط ما رأيت فيك من إصرار على عدم المغادرة. فكنتُ أضحك وقلبي يودّ لو ينتحب. وكم قلت لنفسي: «كم تتأخرين يا بنت! هيا ارحلي وأريحينا من شرّك، لقد أدميتِ قلوبنا!». هل رأيت الأم؟ كانت شفتاها ترتجفان. كل نظراتها كانت مسمّرة عليك وكأنها تعاين فيك انبثاق آمالها. الآن أتذكر جيدًا. لم أكاتبك حتى اللحظة. كنت أقول في نفسي: «اذهبي وانظري أحوال ذلك

الجزء من العالم. هناك، حيث الكثير من القسيسين والأساقفة والراهبات. هناك، حيث يقدّسون آلة قتل المسيح ويعلقونها على رقابهم. هناك، حيث أبواب الرحمة مشرعة فقط خلال أيام الأحد... ليتك تصيرين دكتورة في أسرع وقت حتى تنقذين نساء العائلة من أيادي الرجال «القابلات». كم أنت متأخرة؟!». في نهاية المطاف غادرتِ وكأنك انفصلت عن منظومة متشابكة. حضر الخال الصغير مع أهله وعياله وغاب الخال الكبير. قال: «وهل هي مسافرة إلى الحج؟ قلت لكم، مئة مرة، لا ترسلوا هذه البنت إلى الخارج وحيدة. من سمع كلامي؟!».

الخالات والعمّات حضرن أيضًا. بعد ذلك، جلس الجميع في سياراتهم وخرج الجيران من بيوتهم، وغرق زقاقنا الصغير في اكتظاظ وزعق. أتذكرين لمّا انطلقت سيارتنا؟ كنا في سيارة عمّو جعفر. حينما تحركنا تبعنا البقية. أسندت الأم رأسها إلى زجاجة باب السيارة الخلفي وأخذت تنظر إليك خفية، وكنتِ تعلمين أنها تنظر إليك، حينها كنت تتحدثين والابتسامة لا تفارق ثغرك. قلتِ لي لا تَدَعِ الحزن يستحوذ على أمي فقلت لك: «فكِّري في نفسك فقط».

الآن، جلستْ أمي مشدوهة غارقة في صمت. كانت منهكة. لمّا كانت تمررك من تحت المرآة والمصحف كانت تقول بأنين وضحك وبكاء: «ماذا أصنع الآن في وحدتي؟ ابنتي الوحيدة... ».

كانت الخالة الصغيرة زهرة ترد عليها: «آه، أنت أيضًا! وهل هي ذاهبة كي يدبغوها؟».

التفَّتِ العمّات والخالات حول الأم: «الآن وأمام أعين البنت؟! ألا تحسبين لها حسابًا؟».

«لا تفطري قلبها كمدًا».

«أختي، أولادنا عندما يكبرون سيرحلون أيضًا».

إحدى العمّات مسّدت شعري وقالت: «عزيزي سعيد، متى تذهب أنت؟». قلت لها: «حين تعود ملاك».

«لا تحزن عليها!».

«كلا لن أحزن».

قالت الجدة للأم: «لماذا أنت هكذا؟!»

لملمت الأم نفسها كي تبدو أمامك سعيدة. أنت لا تدركين مبلغ صعوبة الانفصال عن أخت أو بنت طيبة. كأن الإنسان يُقطّع إربًا إربًا ثم يعاد لصقه من جديد.

قالت أمي لهم: «أنتم تعلمون أن هذه البنت ليست كالأخريات... إن ملاك، حقًا، ملاك».

هكذا رحلتِ، وسط كل ذلك الشوق والأمل والغم والبكاء والضحك وصيحات الابتهاج. أقلعت الطائرة فانطلقتْ شهقات بكاء النسوة تحت شواديرهن وتصفيقات الرجال والشباب وبهجتهم. أما الصغار فلم يعرفوا ماذا عليهم أن يفعلوا، أيصفقون أم يبكون؟! وقفوا مذهولين يشاهدون الطائرة وانتباههم مشدود إلى المركبات الصغيرة في المطار، وهي تبدو تحت الطائرة مثل الفئران التي تفرّ في ذا الاتجاه وذاك. بينما أنا سمّرت ناظريّ في الطائرة التي كانت مع كل لحظة تغدو في السماء أصغر وأصغر.

بعد ذلك اليوم، كنتِ خلال هذه المدة تكتبين رسالة كل أسبوع وترسلينها مرفقة بالصورة.

كانت أمي تقول: «الحمد لله أن أخلاقها لم تتغيّر. انظر يا سعيد، ما يزال الشال يغطي رأسها، طبيعية وبلا ماكياج، أكيد أنها أبغضت أولئك المخنثين والمائعين».

أحيانًا، كان يظهر في خلفية الصور القساوسة والراهبات يمشون ويجيئون، وأحيانًا أخرى، البنات المترجِّلات وشبه العاريات والمخنثون. كما كانت تنتصب أيضًا بضعة مانيكان وراء واجهة حوانيت زجاجية.

انقضت سنة ونصف على هذا النحو، فلا أنت جئت إلى إيران ولا نحن استطعنا زيارتك. بعد ذلك، كتبتِ أنك أصبت بمرض وسوف تخضعين لعملية جراحية. ما أدرانا نحن، قال لك الأطباء بأنهم سيعالجونك ولا داعي للعودة إلى إيران. آخر صورة أرسلتها تظهرين فيها طريحة سرير المستشفى، ترتدين ملابس بيضاء باهتة اللون، نحيلة لم يبق فيك سوى العظم، تشبهين الأطفال الجياع. نظرتِ إلى الكاميرا نظرة لن ننساها أبدًا. كم حاولتْ أمي وكابدت كي نزورك، لكن من دون جدوى. لم يكن لدينا المال ولم تكن هي لتتحمل الطائرة. في وقت لاحق، هاتفنا أصدقاؤك من إيطاليا وقالوا، بكل وضوح وبلا تستر، إن ملاك قد ماتت، وقدّموا لنا العزاء والمواساة. يبدو أنهم لم يدّخروا وسعًا. لكن عزيزتي ملاك، جدار المرض مرتفع جدًا على أطباء الدنيا. قالوا بصراحة ودون التواء إن ملاك قد ماتت. حينها جمدنا في أماكننا وانهدّ كياننا؛ أخذت أمي تلطم الخدود وتشقّ الجيوب وتشجّ رأسها على الجدران، والنساء يصرخن ويولولن في غرفة أمي والرجال ينتحبون في مكان آخر. كانت جدران البيت في حداد وعزاء، والشمس تطل حزينة مغمومة. وكنتُ أستشعر خجل الأشجار لأنها لا تستطيع ذرف الدموع. هل تتذكرين؟ أعلم أنك تذكرين كلتا الشجرتين، شجرة الإجاص وشجرة زهر العسل اللتين غرسناهما معًا. وقتها، كنت تبلغين السادسة عشرة من عمرك وكنت أنا ابن الحادية عشرة. ذهبنا إلى الحديقة، ووجدنا على بابها بائع ورد سمج يسقي أزهاره. أنت أردت شراء النسرين وأنا الياسمين لكن الأم قالت: «اشتريا شجرة إجاص صغيرة تثمر كل سنة ست إجاصات، ثلاث تأكلهن الديدان وثلاث نأكلهن نحن».

اشترينا شجرة إجاص وفسيلة زهر العسل. وكنا، دائمًا، نبالغ في سقيها حتى في الأيام الماطرة. غضبت أمنا وثارت قائلة: «أنتما اشربا هذا القدر من الماء

وانظرا أتنفجران أم لا؟».

الآن أريد أن أحتفل بعيد حياتك الرابع والعشرين بمعية كل هذه السآمة وهذا الكلام. أكتب هذا كله أيضًا وأضعه في مكتبتك. أعلم أنك سوف تأتين يومًا وتقرئينه. اليوم هو الحادي عشر من شهر نونبر تشرين الثاني، الأمطار تهطل منذ الصباح وتجلد شجرتينا. بعد النحيب والبكاء، أصيبت الأم بصمت ووجوم يراودانها هذه الأيام على فترات. تظل مسمّرة في الأفق عينيها المترقّبتين وهي مبهوتة ممتقعة اللون، ربما ترنو إلى عينيك السوداوين الرهيفتين. تعلمين أن موتك قد أترح حياتنا، لكن مصيبتنا لم تبدأ إلا حينما أحضروا نعشك إلى إيران، فجثت على صدر أمنا سحب التعاسة والنكد الثقيلة. الخال الكبير ومن لفّ لفّه أسمعوا أمنا كلامًا حطّم أعماقها وقضى على معنوياتها للأبد.

في اليوم الذي كان مقررًا إحضار النعش، اجتمع أفراد العائلة جميعهم في صالة المطار. الجميع كان حاضرًا: الأعمام والعمّات والأخوال. خالي الكبير كان موجودًا أيضًا. قطّب جبينه وانتصب واقفًا: «كل هذه المتاعب من تحت رأس هؤلاء النسوة. أستغفر الله».

كان الكل واقفًا ولا أحد استطاع الجلوس. إنه الانتظار اللعين مثله مثل الأرق. تودّ لو تجلس من شدة التعب لكن لا تستطيع. تودّ لو تتمادى في شرب الماء، لكن لا مجال لذلك. تودّ لو تظل واقفًا، لكن هل من الممكن أن تقف طوال الوقت. وإذا أردت المشي، فإلى أين تذهب؟ الكل كان واقفًا؛ أمي خائرة القوى وكالحة. بعد كل ذلك البكاء والإغماء وقفت الآن مشدوهة مشدودة إلى تلك الأماكن؛ إلى ما وراء واجهات المطار الزجاجية الكبيرة، في سقف المحطة الهوائية الفضي، في الأفق حيث يلتصق المدرج بالسماء. كنتِ هناك بالتأكيد ومن هناك كنت ستأتين. وحينما كنت ذاهبة اختفيت هناك. كانت الأم تنظر إلى الأفق فقط، وكأنها كانت في المطار ولم تكن. لم تكن تبكي، بل ربما كانت تضحك. وأنتِ كنت آتية بعينيك البرّاقتين السوداوين وشعرك

المجعّد وابتسامتك التي ترسم على خديك غمّازات، بجدلتين من الشعر متهدلتين من الطرفين. ماذا بوسعي أن أقول أكثر؟

حطّت الطائرة، وما هي إلا لحظات حتى بدأ المسافرون يلجون الصالة وبسمة السرور ترتسم على شفاههم فاستقبلوا بالهتاف والبِشر والقُبل. في هذه الأثناء نفد صبر أمي، وبدأت تخطو خطوات بطيئة وكأن قدميها أُثقلتا بالصخور. كانت تجرجر خطاها واهنة في ذا الاتجاه وذاك. بعد ذلك، نقل مستخدمو المطار صندوقًا خشبيًا كبيرًا وجميلًا بلون بني أرجواني، مصقولًا ومزدانًا بصليب، من عربة يدوية ووضعوه في سيارة الإسعاف. من هنا أطلت المصيبة برأسها.

اندفع الخال الكبير متأججًا: «أهذه هي؟».

لاذ الجميع بالصمت، لا أحد كان يعرف لمَ رقدتِ في تابوت خشبي عليه صليب. انزلقت الأم إلى هاوية التوتر، وقالت: «ما العمل الآن؟».

قلت لها: «لأجل ماذا؟»

نظرتْ إليّ: «لا شيء بنيّ العزيز».

وحده الخال الكبير الذي لم يكن يبكي، وقف مزبدًا كأنه يكنّ في نفسه عداوة قديمة، وقال باندفاعه المعهود: «هذه نتيجة تصرفاتك، أختي! هل جئت بنا لتريقي ماء وجهنا على رؤوس الأشهاد؟».

طأطأت الأم رأسها ولم تنبس بكلمة.

تابع الخال الكبير كلامه مسمعًا الجميع: «كم قلت لكم لا ترسلوها. أرسلتموها مسلمة وأرجعتموها كافرة». ثم أدنى رأسه أكثر: «أعلم أنك تتضايقين مني، أختي لكن عقاب الله نازلٌ ولا محيد عنه. حذار من غضب الله! لقد أرسلت فتاة مثل باقة ورد إلى بلاد الكفر تلك!».

لم تدر الأم ما تقول، ولم يكن الخال الكبير يسمح لأحد بالكلام، وظل مسترسلًا. قال لها إنك فقدت ثقافتك. لكن الثقافة لا تختزل في الشال والجوارب والتابوت المستأجر فقط. بل في الكثير من الأشياء، في أربعة آلاف سنة. حين فتحنا حقائبكِ أدركنا أنك لم تتوهي في زحمة إيطاليا، وعدتِ كما أرسلناك. بكت أمي من جديد، وأخذت تهذي وتتلوى على نفسها.

كانت تقول: «أيتها العمة، هل تظنين أن ملاك صارت نصرانية؟».

«كلا، عزيزتي منيجة، اصبري حتى نتحقق».

وُضع النعش، بهدوء، على أرضية الصالة قبالة فتحة مكيف الهواء. تقدم الخال الكبير، وهو كبير العائلة، وسمّى الله «بسم الله» وأزاح مزلاج الصندوق ثم نزع الباب بترو. كان على الأم، الآن، أن تجلس بالقرب من التابوت وتتحسّسك وتقبّلك وتذرف الدموع وتقوم بكل ما تريد.

فجأة، تعالت همسات لطيفة وانتشرت في جميع الغرف انتشار النار في الهشيم أما أنتِ فقد كنت راقدة وسط التابوت، يتلاعب الريح بجدائل شعرك وقد استأنستْ كتلةٌ شفافة منه بمكانها وهي تحيط برأسك. وعلى امتداد ذلك استرخت يداك. عينان مطبقتان وثغر بارد ومبتسم وملابس مخملية زرقاء، كأنك عروس، وكأن ملاك الحزن قد رقد. كان أعلى عينيك أزرق فضيًا، والخدود حمراء وبيضاء، والأظافر مطلية، يكلِّل رأسك تاجٌ من الزهور. لقد كنت عروسًا ولم تكوني ميتة البتة. كنت تضحكين، يتموّج في محياك صمت الأم وحيرتها. كان دائمًا لديّ اعتقاد أن الأم تمتلك في ذاتها شيئًا يفتقر إليه البعض؛ أظنه الوقار والحياء. أنتِ أيضًا مثل الأم تمامًا، لكنك ورثت شيئًا واحدًا من الأب: سرطان الدم.

علت وجهك طبقة ناعمة من غبار الجبس، أضفتْ على لونك نصاعة أكثر، وجعلت عينيك السوداوين ورموشك الطويلة أشدَّ إثارة وشفتيك الصامتتين

أشدَّ احمرارًا. لم أركِ من قبل بهذه الزينة والماكياج. أحببتك أكثر بالصورة التي كنت عليها سابقًا.

اندفعت الأم باكية: «ملاكي العزيزة!».

كنتُ أستطيع رؤيتك راقدة فأغيظك خلال أيام العطلة فقط. كنتِ تلفين البطانية عليك وتخفي وجهك تحتها حتى الأنف، فلا يظهر منك سوى العينان. وكان رش قطرتي ماء فوق عينيك كافيًا لوضع حد لنومك. كان نومك، حسب ما تسعفني ذاكرتي، على هذه الصورة، وليس بالماكياج والمساحيق الحمراء والبيضاء.

فتحت الخالة حقائبك الثلاثة كلها. الملابس كلها كانت موجودة، القديمة والجديدة، بما فيها التي كنت ترتدينها يوم سافرت؛ الشالات، والقمصان المطرّزة يدويًا، وشادور الصلاة. جميعها منظفة ومكوية ومغلفة بأغلفة بلاستيكية. بعد ذلك، قلّبوا كتبك: ديوان حافظ والمصحف وكتاب الشاهنامة ورباعيات عمر الخيام وبرواز صور وغير ذلك. أرسلوا كل أشيائك.

تناول الخال الكبير المصحف وقال: «انظر إلى صفحاته، لم يُفتح أبدًا. هناك، يقرؤون الإنجيل».

رمقتك الأم باكية: «لماذا بنيَّتي؟».

وُزعت بضعة أطباق من التمر والحلوى على الغرف حتى لا ينسى أحد أنك متِّ. مسّدت إحدى العمّات على رأسي ملمِّحة إلى أني صرت وحيدًا.

نطق الخال الكبير: «حسنٌ، لنأخذها إلى مقبرة النصارى».

إثر ذلك، اندفع أحمد آغا، زوج الخالة الصغيرة أقصد الخالة زهرة، والذي كان قد وصل من توّه، فانفجر أمام الخال الكبير مزمجرًا: «توقفوا، هذا يكفي، ألا

تخجلون! هذه تقاليدهم. إنهم يجهزون الميت ويزينونه وفق أعرافهم، يضعون الصليب والإنجيل على صدر الميت بأمر من القسيس».

كان البكاء والعويل قد بلغ مداه وسلب الأمان من الجميع.

قال أحد الجيران: «أعوذ بالله! يزينون عروسًا ويرسلونها».

بعد ذلك فتحت الأم باب التابوت ثانية وأزاحت الصليب والإنجيل عن صدرك، وأخذت مقصًا وقلّمت أظافرك. أتعلمين كم كابدت الأم؟ لم تكن تبكي، أبدًا، أمام الأخوال لئلا يجرحونها بسهام ألسنتهم. ولمّا قال أحمد آغا إنها طقوس الأجانب، خرّت بجانب التابوت مثل المجانين وأخذت تشهق بكاء. فكانت تقصّ أظافرك وهي تنتحب وتندب:

«أولًا هذا الأصبع الكبير. المرة الأولى، لا. إنه ليس طويلًا جدًا، بنيّتي. المرة الثانية لا تقولي شيئًا، ما أشدَّ وهنك وذبولك! ابتسمي، اصبري، لا تسحبي يدك الآن. المرة الثالثة تكلمي ولا تكوني رزينة، فالمرء يشتاق. أرني راحة يدك... من كان يغسل أوانيك وملابسك؟ حسنٌ، الآن... الآن اليد الأخرى. حسنٌ فالمرء يشتاق ويحن. الأصبع الكبير أولًا. هل نسيت مجددًا؟ آه يا بنيّتي. كم صرت هزيلة! انتظري، الآن سأحضر الأسيتون والقطن. أعطوني أسيتونًا. سأزيل صباغة أظافرك. أنت لم تكوني تحبينها! لكن يديك صارتا جميلتين، فالأحمر يلائم لون بشرتك. لا، لا. الآن أعطني يدك الأخرى. لا، ما أصغر هذه الأصابع! دعيني أقبلهن. يا الله. اصبري... الآن... الآن... بنيَّتي.

أزالوا ماكياج وجهك ونزعوا تاج الورود البيضاء من على رأسك، وجردوك من الملابس المخملية ثم أغلقوا باب التابوت كي لا يراك أحد. جلب لك الخال الكبير بردًا يمانيًا. بعد ذلك نقلوك إلى مقبرة «جنة الزهراء» في سيارة إسعاف سوداء اللون.

كانت الأم تقول: «لقد بقروا بطنها وشقوا صدرها».

غسلوا جسدك البارد المجمّد، ونثروا عليه الكافور وماء السِّدْر. وضعوا بين عينيك حجرين صغيرين من تربة كربلاء ثم لَفُّوك في الكفن. صلوا عليك ولقّنوك الشهادة ثم أودعوك القبر.

آخر مرة رأيتك فيها، كنتِ راقدة في تابوت «جنة الزهراء» المشمّع، ممتقعة اللون ولا بقعة دم واحدة في بدنك. كان أسفل عينيك أزرق، وكنت تبدين نحيفة وواهنة بحيث يتعذر تمييزك. كنت أنا وأمي نزورك يوم الجمعة من كل أسبوع في «جنة الزهراء». والآن أيضًا نزورك. نضع بتلات ورد على قبرك، ونرشه بماء الورد. تقرأ الأم القرآن ونبكي على حنوّك وودّك. ولربما على وحدتنا.

الفصل 17

أحمد موسى

من مواليد مدينة تطوان في المملكة المغربية عام ١٩٧٣م.

يعمل أستاذًا للغة الفارسية وآدابها والأدب المقارن في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة شعيب الدكالي بالجديدة، المغرب. حاصل على الماجستير والدكتوراه في فرع اللغة الفارسية وآدابها من جامعة طهران بإيران. ترجم العديد من البحوث والكتب والدراسات من الفارسية إلى العربية، منها ترجمة كتاب «تاريخ مختصر زبان فارسى» [ملخص تاريخ اللغة الفارسية] ٢٠٠٦م.

ترجم إلى العربية: رواية چشمهايش [عيناها] للروائي الإيراني المعاصر بزرگ علوى. ونشرت الترجمة في سلسلة «إبداعات عالمية» بالكويت تحت عدد ٤٠٢، أغسطس ٢٠١٤م.

المجموعة القصصية «آبشوران» للقاص والروائي الإيراني المعاصر علي أشرف درويشيان، وصدرت الترجمة عن روافد للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ٢٠١٦م.

رواية «سيمفونى مردگان» [سيمفونية الموتى] للروائي الإيراني المعاصر عباس معروفي، وصدرت الترجمة عن دار المتوسط بميلانو سنة ٢٠١٨م.

رواية «ملكوت» [جن إيراني] للروائي الإيراني الرائد بهرام صادقي، وصدرت الترجمة عن منشورات الربيع بالقاهرة سنة ٢٠١٨م.

أصدر كتاب «الدروس الأساسية في اللغة الفارسية» عن دار باب الحكمة للنشر بتطوان / المغرب في العام ٢٠١٦م.

الفصل 18

الفهرس

1 - الغلاف 2 - ربيع كتماندو الأزرق 3 - مقدمة المترجم 4 - صـادق هـدايت (١٩٠٣-١٩٥١م) 5 - جـلال آل أحمـد (١٩٢٣-١٩٦٩م) 6 - بهـرام صادقـي (١٩٣٦-١٩٨٤م) 7 - غلامحسين ساعدي (١٩٣٦-١٩٨٥م) 8 - جمال مير صادقي (١٩٣٣ - ....) 9 - أحمـد محمـود (١٩٣٢-٢٠٠٢م) 10 - إسماعيـل فصيـح (١٩٣٥-٢٠٠٩م) 11 - علي أشرف درويشيان (١٩٤٢-٢٠١٧م) 12 - گلـي ترقـي (١٩٣٩ - ...) 13 - شهرنوش پارسي پور (١٩٤٦-...) 14 - منيرو رواني پور (١٩٥٢-....) 15 - زويا پيرزاد (١٩٥٢-...) 16 - عباس معروفي (١٩٥٧ - ...) 17 - أحمد موسى

النهاية - الفصل 19